روايات عالمية للجيب ٢

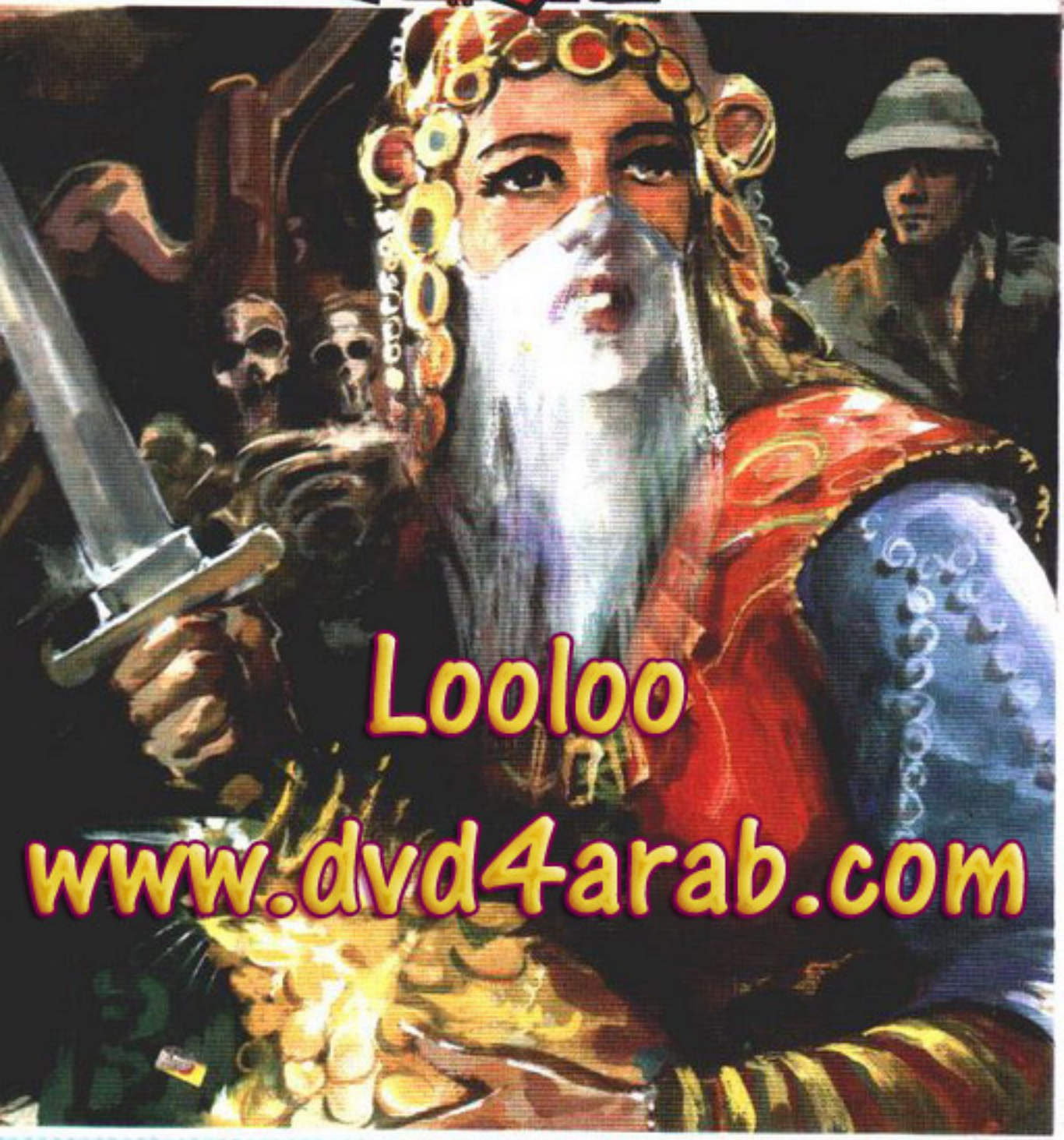

Looloo
www.dvd4arab.com

كنوز الملك سليمان

تأليف : رايدر هاجارد
إعداد : د. نبيل فاروق

روايات عالمية للجيب

سلسلة جديدة ، تقدّم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمى ، فى مختلف صنوفه ..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية ..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال ..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير ..

ومن الشرق إلى الغرب ..

وإلى الحضارة ..

وإليك ..

د. نبيل فاروق

١ ـ المعبـود ..

قصتى فى الواقع عجيبة وغريبـة ، حتى اننى اتساءل ، وانا اخطها إليكم ، عمـا إذا كانت قابلة للتصديق ام لا ، فهى ـ على الرغم من حدوثها ـ تبدو اقرب إلى روايات الأساطير ، وخيالات الأدباء ، بكل ما تذخر بـه من احـداث مثيرة ، ومـواقف مدهشة رهيبة ، وبكل ما تحمـله إلى مستمعيها وقرائهـا من روائح الشرق ، وغموض الأدغـال والبرارى ..

ثم اننى لست بالبطل الأسطورى المقدام ، الذى يمكن ان تحاك حوله كل هذه المغامرات والأحداث ، فلقد ولدت فى (كمبرلاند) ، من اب مزارع ، اختار لنفسه زوجة من إحدى مقاطعات (ويلز) ، ممـا اورثنى حب الانتقال والأسفار ، وملأ عروقى بدماء المغامرة والمجازفة ..

ولا تجعل هذه المقدمة تبهرك ، او تحبس انفاسك ، او تدفعك إلى رسم صورة خيالية لى ، ابدو فيها ممشوق القوام ، مفتول العضلات ، وسيم الملامح ، فانا ـ على العكس ـ هزيل نحيل ، لى وجه يشبه وجه الجدى الأبيض ، إلى حد دفع المصريين إلى ان

يطلقوا على اسم (الجدى الأبيض) بالفعل ، عندما قضيت فترة اسيرا فى سجونهم ، بأمر خليفتهم ..

ثم إن عمرى الآن يناهز الخامسة والستين ..

ولكن دعونا نعود إلى قصتى ..

إننى طبيب من الطراز القديم ، الذى لم يكن يعتمد على طرق العلاج الحديثة ، ولم اكد ابلغ سن الشباب حتى رحت اغذى رغبتى فى الانتقال ، بالسفر إلى الشرق والغرب ، حتى استقر بى المقام فى (القاهرة) ، مع حلول عيد ميلادى الأربعين ، وفيها رحت امارس مهنتى ، وتصورت اننى ساكتفى بممارستها حتى آخر يوم من عمرى ، لولا ان التقيت بمستر (هيجز) ، عالم الآثار الشهير ..

ولهذا اللقاء قصة ..

لقد دعيت يوما لتوقيع الكشف الطبى عليه ، عندما اصيب بمرض التيفوئيد ، وعلمت انه واحد من اشهر علماء الآثار فى العالم ، وانه يتحدث ما يقرب من خمس عشرة لغة ، كما يمكنه قراءة اللغة الهيروغليفية بنفس البساطة التى يقرأ بها (جريدة التايمز) ، وانه قد انفق آخر قرش يمتلكه على بحوثه فى علم الآثار والتنقيب ، فلم اتردد فى معالجته مجانا ،

إلى ان شفى تماما ، وقامت بيننا صداقة وثيقة . خاصة وانه كان فى الثالثة والثلاثين من عمره ، اى ان الفارق السنى بيننا لم يكن كبيرا . .

وفى (القاهرة) ربطنى الحب والزواج بفتاة قبطية ، من إحدى اسر الصعيد ، وسليلة للفراعنة الأمجاد ، ونعمت معها بسعادة لا مثيل لها ، على الرغم من احتفاظها بطابعها الشرقى ، وانجبت لى ابنا واحدا ، ثم اصابها الطاعون اللعين ، فقضت نحبها ، وتركت لى الطفل ، الذى ابت الاقدار ان تترك لى لمحة من الحياة معه ، واصرت على ان تملأ كأس حزنى حتى حافته ، فاختطف رجال (المهدى) ابنى ، وحطموا ما تبقى من نفسى تحطيما . .

وبعدها سارت بى الحياة على نهج ثابت ، ووتيرة حزينة ، إلى ان فكرت يوما فى زيارة وطنى ، فسافرت إلى (لندن) ، واتجهت من فورى لزيارة مستر (هيجز) ، وهناك قادتنى خادمته إلى حجرة مكتبه ، حيث وجدت نفسى بين اكداس من التحف والمخطوطات والبرديات الفرعونية ، وصناديق احتشدت ببقايا مومياوات واجزاء بشرية محنطة ، ولم يكد (هيجز) نفسه يصل ، حتى بدا لى شبيها بتلك الأشياء ، وهو يرتدى معطفا ابيض اللون ،

اتسخ كثيرا باتربة وغبار العمل ، وقد وخط الشيب فوديه ، وبدا وكانما قد تسلل إلى عينيه الباهتتين ، وهتف وهو يصافحنى فى حرارة :

ـ يا للمفاجاة !.. (ريتشارد آدمز) بشحمه ولحمه !!.. اهو انت حقا ؟

ابتسمت وانا اصافحه قائلا :

ـ يلوح لى ان كلمة شحمه هذه تحمل الكثير من المبالغة يا صديقى ، والواقع اننى اردت مفاجاتك ، فاخبرت خادمتك اننى مجرد صديق ، ولم اذكر لها اسمى .

هتف :

ـ مرحبا بك فى اية لحظة يا صديقى .. دعنى اقدم لك صديقى الكابتن (اورم) .

صافحت الشاب الذى قدمه لى ، وهو ممشوق القوام ، عريض المنكبين ، وسيم الملامح ، هادىء الطبـاع ، يبدو فى الخامسـة والعشرين تقريبا ، و (هيجز) يستطرد فى حماس :

ـ (اورم) هو احد نوابغ اللغة العربية وعـلم الآثار المصرية ، ولقد تطوع فى الجيش إبان حرب (البوير) ، واصيب ثلاث مرات .

تبادلت كلمات المجـاملة مع (اورم) ، وانهمك

ثلاثتنا فى أحاديث طويلة ، استعدنا خلالهـا بعض الذكريات ، انا و (هيجز) ، وتناولنا بعض الطعام والشراب ، ثم اشعل (هيجز) غليونه ، واسترخى فى مجلسه ، وهو يسألنى فى اهتمام :

ـ قل لى يا (آدمز) : لمـاذا عدت إلى الوطن ؟

اجبته فى بساطة ، وانا الوح بكفى :

ـ مجرد إجازة .

اعتدل فى حركة سريعة ، وانعقد حاجباه فى اهتمام بالغ ، وهو ينفث دخان غليونه ، متطلعا إلى خاتم كبير من الذهب ، يزينه فص من الياقوت الأزرق فى إصبعى ، وقد نقشت عليـه حروف قديمة ، فسألته :

ـ هل يروق لك ؟

أومأ برأسـه إيجابـا ، ومد يده إلى ، فنزعت الخاتم ، ووضعته فى راحتـه ، وراح يفحصه فى اهتمام ، ثم سألنى :

ـ هل تعرف معنى تلك الحروف القديمة ؟

هززت راسى نفيا ، فقرأ الكلمات فى هدوء :

ـ هدية من (سليمان) الحكيم إلى (بلقيس) ، ابنة الملوك والحكمة والجمال .

ضحكت قائلا :

ـ يا له من تقليد طريف !! لقد ابتعت الخاتم من صائغ فى (القاهرة) ، بجنيه ونصف فحسب .

تطلع إلى فى شك ، مغمغما :

ـ اتعنى انه مجرد خاتم مقلد ؟.. لا .. يبدو لى انك تسخر منى فحسب ، وإلا فمن صنعه مثقف للغاية ، حتى يخط عليه هذه النقوش العبرانية الدقيقة .

ران الصمت علينا لحظة ،ثم قلت :

ـ الواقع اننى قد حصلت عليه من سيدة تدعى (ام النجاشى) ، وهى تدعى انها حفيدة (سليمان) و (بلقيس) .

راح يفحص الخاتم مرة اخرى فى اهتمام ، ثم دسه فى احد جيوب صداره ، وابتسم قائلا :

ـ اهذه هى القصة كلها ؟

القيت نظرة جانبية على كابتن (اورم) ، ثم اعتدلت قائلا فى حزم :

ـ انا مستعد لأن اقص عليك القصة كلها ، بشرط ان يقسم كابتن (اورم) بألا يعيد كلمة واحدة مما سيسمع على اذن احد .

قال (أورم) فى هدوء :

ـ ثق اننى اهل لثقتك يا سيدى .

بعثت كلماته ولهجته الطمأنينة إلى نفسى ، وبدات اروى لهما ، قائلا :

ـ حدث ان اعتقلنى خليفة (مصر) خمسة اعوام كاملة ، لخلاف بينى وبينه ، ولم يكد يطلق سراحى حتى سعيت للبحث عن ابنى (رودريك) ، الذى اختطفه رجال (المهدى) قديما ، ورحت اقضى عمرى متجولا فى صحارى (افريقيا) ، علنى اجد ولدى ، وقد باعه هؤلاء اوغاد كالرقيق ، إلى إحدى القبائل او احد التجار ، ولما كان ابنى موسيقيا موهوبا ، فقد كان تتبع خطواته امرا ميسورا ، ولقد علمت انه قد راح يتنقل من قبيلة إلى اخرى ، وقد اطلقوا عليه لقب (مطرب مصر) ، لإتقانه لفتهم ، والعزف على آلاتهم الوطنية ، وعلمت انه يستقر الآن وسط قوم من انصاف البرابرة ، يحملون اسم قبائل (الفنج) ، ويقيمون فى وسط (افريقيا) ، فتنكرت فى زى تاجر عربى ، وسافرت مع عدد من التجار إلى حيث (الفنج) ، وهناك تسلقت حائط احد معابدهم ، فى اثناء احد احتفالاتهم الدينية ، واستمعت إلى غنائهم .. ولسعادتى ميزت صوت

ولدى بينهم ، وتعرفته على الرغم من ثوبه الأفريقى ، والأعوام التى انقضت منذ فراقنا ، ولحظتها غلبنى انفعالى ، ودفعنى حنين الأبوة إلى أن أتناسى كل قواعد الحذر ، وأصرخ مناديا باسم ابنى (رودريك) ، وهنا ساد الهرج والمرج ، ولمحنى بعض (الفنج) فى مخبئى ، وانطلق عدد منهم نحوى ، فغلبنى الجبن ، واطلقت ساقى للرياح ، ورحت أعدو بكل ما أملك من قوة ، وقد ارتشق أحد السهام بين كتفى ، غير مبال بزئير الأسود فى الأدغال ، ولا بالأحراش المظلمة ، ولكن فجأة انقض أسد على جواد يجاورنى ، واصابنى بالرعب ، وسقطت فاقد الوعى .

بدا الانفعال واضحا فى صوت (هيجز) ، وهو يسألنى :

ـ وماذا حدث بعدها ؟

أجبته :

ـ استعدت وعيى بعد اسبوع كامل ، ووجدت نفسى ارقد فى شرفة واسعة لمنزل انيق ، وإلى جوارى حبشية حسناء ، تعنى بجراحى ، وتداوى آلامى ، وعلمت فيما بعد أن (الفنج) قد انتقموا من قافلة التجار العرب ، الذين اندسست وسطهم ،

استعدت وعيى بعد أسبوع كامل ، ووجدت نفسى أرقد فى شرفة واسعة لمنزل أنيق ..

واحرقوها عن آخرها ، وان هؤلاء الذين انقذونى من الأسد هم ابناء قبيلة (اباتى) ، التى تعيش فى مدينة (إلمور) ، وقد نالوا نصيبا موفورا من المدنية ، ويبلغ تعدادهم ما يقرب من العشرين الف نسمة ، وهم يحيون فى رعب دائم من (الفنج) ، الذين يحملون لهم كراهية متوارثة ، ويمتلكون حصنا عجيبا جبليا ، ورثوه ايضا عن اجدادهم .

سألنى (هيجز) ، وقد ملأت اللهفة حواسه كلها :

ـ ثم ماذا ؟

تنهدت قبل ان اقول :

ـ بذلت اقصى جهدى لحض (الأباتى) على إعداد حملة ضد (الفنج) ؛ لإنقاذ ولدى من العبودية والرق ، ولكنهم سخروا منى ، واعلنوا رفضهم التام لفكرتى ، فلم اجد امامى سوى ملكتهم (مجيدة) ، ابنة الملوك والجمال والحكمة ، وتظاهرت بالاهتمام بصحتها كطبيب ، وافضيت إليها بفكرتى ، فترددت طويلا ، ثم اخبرتنى ان لـ (الفنج) معبودا على هيئة (ابى الهول) ، ولكن راسه ليست على شكل راس إنسان ، وإنما هى راس كبش ضخم ، وهذا المعبود يدعى (هرمق) .

تمتم (هيجز) ، وهو يستمع فى اهتمام :

ـ هذا يعنى (إله الغجر) .

واصلت دون الالتفات إلى تعليقه :

ـ و (الفنج) يؤمنون إيمانا قاطعا بأن تدمير هذا المعبود هو أمر بالرحيل عبر نهر الجنوب العظيم .

سألنى (هيجز) فى اهتمام بالغ :

ـ اى نهر هو ؟

اجبته فى اهتمام مشابه :

ـ لم تذكر اسمه ، ولكنه احد روافد نهر النيل حتما ، او احد فروعه .. المهم اننى قد اقترحت عليها السعى لهدم ذلك المعبود ، فضحكت واخبرتنى انه شديد الضخامة ، فى حجم جبل صغير ، وليس من الهين هدمه بالأيدى ، ثم إن رجالها قد فقدوا الكثير من شجاعتهم وبأسهم ، وانهم قد استكانوا للعيش فى ارضهم الخصبة ، حتى يوافيهم الأجل وتطوى صحائفهم ، ولما سألتها عما إذا كانت هى قانعة بكل هذا الخضوع والخنوع ، اجابتنى بأن الحزن يملأ قلبها وعقلها ، ويؤرق نومها ، ولكنها على اية حال امراة ، لا حول لها ولا قوة ، ثم حاولت قلب الأمور ، فراحت تغرينى بكنوز اجدادها المخباة ، وتعدنى بجبل من الذهب والمجوهرات ، لو اننى

سعيت لهدم ذلك المعبود ، فأجبتها بأننى زاهد فى المال والثروة ، وكل ما أرغب فيه هو إنقاذ ولدى ، الذى يحيا كعبد بين (الفنج) ، فأصرت على موقفها ، وعلى انها لن تبذل جهدها او رجالها فى سبيل استعادة ولدى ، قبل ان يتم هدم ذلك المعبود ، وهنا رحت اشرح لها فوائد الديناميت ، وقوته ، وتأثيره ، وخواص غيره من المتفجرات ، فهتفت فى حماس ، تطالبنى بالعودة إلى بلادى ، وإحضار المواد اللازمة لهدم ذلك المعبود ، واثنين او ثلاثة لمعاونتى ، وستمنحنى كنوز الأجداد كلها ، وتساعدنى فى استعادة وحيدى .

سألنى (اورم) :

ـ وماذا فعلت ؟

اكملت أنا :

ـ منحتنى الملكة (مجيدة) الكثير من الذهب ، وعددا من الرجال والجمال ، وسلكنا دروبا خفية ، لا يعلم عنها (الفنج) شيئا ، وقطعنا عدة أميال فى الصحراء ، حتى بلغنا (اسوان) ، وهناك تركت الرجال والجمال منذ اسبوعين ، وهرعت إلى هنا ، لمعرفتى بمدى شغف صديقى (هيجز) بالآثار القديمة ، واردت ان امنحك ، إلى جوار الثروة ،

فرصة لتكون اول من يكشف مدنيات قديمة ، ضاعت فى غياهب المجهول ، وكل ما اطلبه الآن هو ان نجد رجلا خبيرا فى المفرقعات ، ياخذ على عاتقه مهمة هدم معبود (الفنج) .

ابتسم (هيجز) ، واشار بطرف غليونه إلى كابتن (اورم) ، قائلا :

ـ الأمر اسهل مما تظن ، فها هو ذا كابتن (اورم) ، مهندس وكيميائى ، وخبير مفرقعات ، إلى جانب إجادته التامة للغة العربية منذ صباه .

تطلعت إلى الكابتن ، اسأله :

ـ هل ترضى بإقحام نفسك فى مثل هذه المخاطرة ؟

هز كتفيه ، مجيبا فى هدوء وبساطة :

ـ ليس لدى الآن ما يمنعنى من هذا .

سألته :

ـ ماذا تعنى بكلمة (الآن) ؟

تضرج وجهه بحمرة خفيفة ، لم تلبث ان تلاشت فى سرعة ، وهو يجيب :

ـ الواقع اننى كنت اتصور ، حتى امس فقط ، اننى قد ورثت ثروة عظيمة ، من عم لى ، توفى فى

جنوب (افريقيا) ، واليوم علمت انه كان قد تزوج من امراة ادنى منه مرتبة ، على نحو سرى ، وانجب منها ولدا ، هو وريثه الشرعى ولا شك ، ولكن هذا ليس السبب الوحيد لرغبتى فى ترك (إنجلترا) ، وإنما السبب الحقيقى هو ان المراة التى تصورت انها تحبنى ، واننى سأصبح زوجا لها ، قد صارحتنى اليوم بانها لن تتزوج ضابطا متقاعدا ، ضاع امله فى ميراث عمه .

بدا لنا الموقف حساسا ، فلم ننطق انا و (هيجز) بتعليق واحد ، احتراما لمشاعر الشاب ، الذى صمت بدوره ، فران على المكان صمت رهيب ، قطعه (هيجز) اخيرا فى صوت مرتفع ، وكانما يدير دفة الحديث بعيدا عن موطن احزان (اورم) :

ـ ما غرضك الحقيقى من هذا يا (آدمز) ؟

اجبته فى الم وانفعال :

ـ حاول ان تضع نفسك فى مركزى .. تصور ان ابنك الوحيد سجين مع قوم غلاظ النفوس ، قساة القلوب وانك قد عثرت عليه ، بعد ان نضج واشتد عوده ، فهل تتركه عبدا بينهم .

ـ اتنقذه بتعريض رقبتك للسيف ؟

ـ الأبوة يا صديقى غريزة لا تقهر ولا تقارن ، ثم إن (مجيدة) قد وعدتنى بالمساعدة والمال ، ولما صارحتها بأن احدا لن يصدق قصتى ، منحتنى خاتمها للدلالة على صحة القصة ، ومنحتنى الذهب لشراء المال والعتاد ، وسالتنى الا يزيد عدد معاونى على ثلاثة ، فهل ترغب فى ان تكون احدهم ، ام ابحث عن غيرك ؟

تطلع إلى فى صمت ، وهو يشعل غليونه ، وينفث دخانه فى بطء ، ثم لم يلبث ان مال إلى الأمام بغتة ، وسألنى :

ـ الديك بعض الذهب الذى منحتك إياه ملكة (الأباتى) ؟

قلت وانا افتح حقيبتى الصغيرة :

ـ ها هو ذا .

ناولته بعض الذهب ، ففحصه فى اهتمام ، وبدا على ملامحه ان شكوكه قد تبددت ، وهو يقول لـ (أورم) :

ـ ما دام يحتاج إلى ثلاثة معاونين ، فلم لا نصطحب الجاويش (كويك) ؟

ثم التفت إلى مستطردا :

ناولته بعض الذهب ، ففحصه فى اهتمام ، وبدا على ملامحه أن شكوكه قد تبددت ..

ـ إنه معاون الكابتن ، منذ كانا معا فى الجيش ، وهو خبير الغام ومتفجرات ، ولقد كان ميكانيكيا قبل الحرب ، ثم إنه مخلص كتوم ، متين البنيان .

وبسرعة ، استدعى (أورم) الجاويش (كويك) ، الذى بدا لى واضح القوة والبأس ، وساله الكابتن :

ـ ما رايك فى رحلة إلى وسط (افريقيا) يا (كويك) ؟

ضرب (كويك) كعبيه بعضهما ببعض ، شأن اى جندى محترف ، واجاب :

ـ لا راى لى يا سيدى .. إننى اذهب حيث يامر رئيسى ، ثم إن المتفجرات هى ابسط الأشياء التى اجيدها .

اصابتنا الدهشة ، وهتف (اورم) يساله :

ـ كيف علمت هذا ؟

اجاب دون حتى ان يبتسم :

ـ ابواب المنازل القديمة هشة غير متماسكة يا سيدى ، وصوت مستر (آدمز) ليس من الاصوات التى تحجبها الجدران .

انفجرنا ضاحكين ، وقال (اورم) :

ـ إذن فلست تمانع فى مرافقتنا .. هل تدرك ما ستتعرض له من مخاطر وأهوال ، وما ستواجهه من احتمال عدم العودة مطلقا ؟

هز (كويك) راسه فى بساطة ، وقال :

ـ ليس احب إلى نفسى من المغامرة ، ثم إننا سنبحث عن ثروة ، وكل ما اطلبه هو أن احصل على خمسة فى المائة منها ، لو عثرنا عليها .

هتفت فى حماس :

ـ خذ عشرة فى المائة .

أجاب فى هدوء :

ـ تكفينى خمسة فى المائة يا سيدى ، ويمكننا ان نحرر عقدا بهذا ..

وبالفعل تم تحرير العقد ..

وبدات المغامرة ..

* * *

٢ ـ القـط ..

ستة اسـابيع مضت ، ونحن نسير فى لجـة لا تنتهى من الرمال الصفراء ، التى لم تطأها قبلنا حتى قوافل البدو الرحل ، والشمس تشرق كل صباح بضوئها الأحمر من خلف التباب الشرقية ، وتختفى فى المساء خلف الكثبان الغربية ، ليصعد القمر ، ويغمر بحر الرمال بضوئه الفضى الساحر ..

وأخيرا بدا لنا ذلك الجبل ، الذى هو معبـود (الفنج) ، الذى يواجه مدينتهم (هرمق) ، التى لا يتجاوز تعداد سكانها الخمسين الف نسمة ..

واخبرنا (القط) ، قائد قافلتنا ، أن للجبـال المحيطة بالمدينة مدخلا واحدا ، على مسيرة ثمانية أيام إلى الشمال ، وأنه لا سبيل لبلوغه هذه الأيام ، حيث تعترضه ـ فى هذا الوقت من السنة ـ بحيرة كبيرة ، يفيض منها نهر (ايبـور) ، ويتفرع إلى فرعين ، يحيطان بسهول (الفنج) كلها ، ولكن هناك وسيلة أخرى لبلوغ المعبد المقام على صخور شامخة ، الا وهى أن نترك الجمـال والأحمـال ، ونتسلق الجبل ..

وكان هذا مستحيلا ..

ولم يكن من المجدى ان نبلغ ذلك المعبود ، مخلفين وراءنا كل ما احضرناه لتدميره ؛ لذا فقد سألت (القط) فى اهتمام :

ـ ما العمل إذن ؟

هز كتفيه فى لا مبالاة ، واجاب :

ـ ليس امامنا سوى ان نسير ليلا ونختفى نهارا ، فمن عادات (الفنج) انهم سيقيمون حفلا رائعا للربيع فى مدينتهم غدا ، ومع الفجر ينتقلون إلى معبدهم ؛ لتقديم القرابين لمعبودهم ، وهم يرفعون الحراسة فى تلك الساعات ، ليشاركهم الحراس احتفالاتهم ؛ لذا فالوسيلة الوحيدة هى أن نبلغ اول طريق (المور) ، مع ليلة الاحتفال بعيدهم ، وساخبر رجالى ؛ لإرسال من يرشدنا إلى الطريق وسط الظلام .

ـ وكيف يمكنك إبلاغهم ؟

ـ بإشارات الدخان .. ساحرق بعض الأعشاب ، وسيتصور (الفنج) أنها نيران احد صيادى المنطقة .

ـ أليس فى ذلك مجازفة كبيرة ؟

ـ مجازفة ؟!!.. عجبا !!.. ما كنت اظن الإنجليز جبناء هكذا .

وهنا انفجر (هيجز) غاضبا :

– جبناء ؟!.. كيف تجرؤ على هذا القول ايها القذر .. انظر إلى هذا الجاويش .. إنه خادمنا ، واقلنا شانا ، ولكن ما بإصبعه الصغير من شجاعة يفوق ما تحمله منها قلوب قبيلتك كلها .

احتقن وجه (القط) غضبا ، ورفع راسه قائلا فى غلظة :

– انت تنطق هراء يا (هيجز) ، ولكن قولك هذا سيتغير كثيرا ، عندما تجد سيف (الفنج) فوق عنقك .

كاد (هيجز) يشتبك معه فى حوار عنيف ، إلا ان (أورم) تدخل قائلا :

– كفى .. اظن ان لدينا من المتاعب ما يغنينا عن المزيد منها .

ثم التفت إلى (القط) مستطردا :

– لا داعى للشجار يا رجل .. إنك قائدنا فى ساعات السلم ، وانا القائد عندما يحتدم القتال ، ونحن نسلمك قيادنا الآن ، فقدنا اينما وحيثما شئت ، وسنتبعك على الرحب والسعة .

ظهر الارتياح على وجه (القط) ، وكانما اعادت

إليه كلمات (أورم) كرامته ، فى حين راح هذا الاخير يطمئن على الإبل والجياد ، وذهبت أنا و (هيجز) و (كويك) إلى خيامنا ، فى محاولة منا لاختلاس قدر من النوم ، قبل أن تهاجمنا اسراب البعوض اللعينة ، وقبل أن انعم بقدر كاف من النوم ، جاء الجاويش (كويك) ليوقظنى مع مغيب الشمس ، وليساعدنى على حزم امتعتى ، ووجدته يقول فى قلق :

ـ لست اثق عادة فى القط الذى يبرز مخالبه هكذا ، فذلك الرجل يبدو لى ماكرا خبيثا ، يكره البيض ، ويتمنى لو نهلك قبل عودتنا من (المور) .

كان هذا شعورى أيضا فى الواقع ، إلا اننى رحت اعمل على تهدئة (كويك) ، وانطلقنا جميعا نقطع طريقنا تحت جنح الظلام ، حتى بلغنا خرائب المدينة المهجورة ، المطلة على الهاوية ، تحت صخور (المور) ، مع تباشير الفجر ، فحططنا الرحال ، وجلسنا نستريح ، وعندما اعتلت الشمس متن السماء ، امكننى رؤية مدينة (هرمق) العظيمة ، بمنظارى المقرب ، على بعد خمسة عشر ميلا .

كانت مدينة كبيرة ، منازلها كثيرة ، ذات اسقف بيض ، تحيط بها الحدائق من كل جانب ، وشوارعها واسعة ، واسواقها فسيحة ، وحول المدينة جدار

عال ، ترتفع فى اركانه ابراج عالية ، وبينها بوابات كبيرة ، وحول الجدار مراع ينبت فيها العشب الأخضر ، وتنتشر فيها قطعان الماشية والأغنام والجياد ، وعلى مقربة منها ما يشبه مدينات او قرى صغيرة ، من المستحيل ان يشيدها او يقطنها الهمج او البرابرة ..

وبقينا فى اماكننا ، ننتظر قدوم الليل ، لنكمل مسيرتنا نحو ارض (الفنج) ، ورحت اراقب (القط) ، وانا اتذكر حديث (مجيدة) عنه ..

قالت : « لا تخلو نفسى من الشك فى امره ، ولكننى استغل فيه دهاءه ومكره وجراته ، وعليك ان تتخذ كل الحذر منه ، فلست اطمئن إليه إلا لأننى احتفظ بزوجته واطفاله رهينة عندى ، واعده بمكافأة ضخمة مغرية ، لو ساعدكم على هدم معبد (الفنج) » ..

تذكرت كلماتها وانا اتطلع إلى وجه (القط) ، الذى يحمل كل ما يثير القلق فى النفوس ، حتى ان كلبنا الوديع (فرعون) كان يكرهه ، وينبح فى وجهه دوما ، بل لقد حاول مرة ان يغرس انيابه فى ساقه ، فبادله (القط) الكراهية ، ولم تكد علبة سم (الاستركنين) تقع فى يده ، حتى غمس فيها قطعة من اللحم ، والقاها إلى (فرعون) ، الذى كاد يلتهمها

بالفعل ، لولا أن شك (هيجز) فى ذلك التعاطف المباغت ، فأسرع يفحص قطعة اللحم ، ولم يكد يدرك مقصد (القط) حتى نشبت بينهما معركة بالأيدى ، كادت تنقلب إلى معركة طاحنة بيننا وبين رجال (القط) ، لولا أن تدخل الكابتن كالمعتاد ، وأنهى الصراع ، وجعلهما يتصافحان ، ولكننى ظللت واثقا من أن نفس (القط) لم تهدأ تجاه (هيجز) ، وأن حقده عليه سيتضاعف مع مرور الأيام ..

توقفت عن اجترار الأفكار والذكريات مع مقدم الليل ، حيث عاودنا السير ، يتقدمنا دليل من (الأباتى) ، يحفظ كل شبر فى الطريق ، وبعده كابتن (أورم) والجاويش (كويك) ، يقودان الإبل المحملة بالمفرقعات والمتفجرات ، وأنا خلفهما للمراقبة والحراسة ، وخلفى جمال القافلة الأخرى ، ثم فى المؤخرة يسير (هيجز) و (القط) ، بصحبة اثنين من (الأباتى) ..

ولقد أصر (القط) على السير فى المؤخرة ، حتى لا تنسب إليه اية اخطاء قد تقع فيها ، وصحبه (هيجز) ، ليدلل على صفاء نيته وطيب طويته تجاهه ..

وفجأة هطلت الأمطار فى عنف ، وراحت الرياح

تزار وتعوى ، إلا أننا لم نتوقف وإنما واصلنا سيرنا فى إصرار وصمت ، طيلة ثلاث ساعات ، حتى واجهتنا اضواء (هرمق) ، وسمعنا همسا يدعونا للتوقف ، ثم لم نلبث أن تبينا ان صاحبه هو أحد الوطنيين من (الأباتى) ، الذين أرسلهم (القط) لاستطلاع الطريق ، وقد عاد ليخبرنا ان عددا من فرسان (الفنج) يسدون الطريق ، وانه من الضرورى ان نتوقف قليلا ، حتى ينتقلوا إلى مكان آخر ، ويفسحوا لنا السبيل ..

واتجه (القط) إلى المقدمة ، ليستطلع ما حدث ، ولم يكد كلبنا (فرعون) يشتم رائحة عدوه ، حتى انطلق ينبح فى شراسة ..

وانطلق (القط) يعدو ..

واضطربت الجمال لعدوه ، وانطلقت تعدو بدورها ..

وجفل قادة الجمال ، عندما راوا (القط) يقفز فوق أحد الجمال ، ويركض به هاربا ..

وهنا التفت إلينا فرسان (الفنج) ..

وهبط قلبى بين ساقى ، عندما رايتهم يرفعون مشاعلهم ، ويتجهون إلينا ..

وكانت لحظات مخيفة ..

* * *

لم ندر كيف فعلنا كل هذا ..

لقد قفزنا كلنا فوق ظهور الجمال ، وتركناها تعدو بنا بسرعة البرق ، دون ان نحدد هدفنا او اتجاهنا ..

لا ريب ان الذعر ، ذلك الذى جعلنا نفعل كل هـذا ..

إنه اقوى محـرك لمن هـو فى مثـل موقعنا او ظروفنا ..

المهم ان الجمال راحت تعدو مبتعـدة ، ونحن نسلمها قيادنا تماما ، حتى خفت سرعتها ، إلى ان راحت تسير تحت قباب عالية ، وتوقفت كلها فجأة ، فهبطنا عن ظهورها ، وربطنـا بعضها إلى بعض ، واوينا إلى برج عال ، نتقى به الأمطار الغزيرة ، وقد اطمأنت قلوبنا إلى ان مطاردينا قد فشلوا فى تتبع خطانا ، فتراجعوا إلى مواقعهم ..

لحظتها كشفنا اختفاء (هيجز) ..

واصابنا هذا بالذعر ..

إننا لم نلحظ هذا ونحن نعدو هاربين ، ولم ننتبه حتى إلى ما حدث ..

هل تبع (القط) فى فراره ، أم فشل فى اعتلاء جمله مثلنا ، فاوقع به فرسان (الفنج) ؟!

حرنا فى البحث عن الجـواب ، وغلبنـا الحزن والنوم ، فرحنا فى سبات عميق ، لم نستيقظ منه إلا عند الفجر ، فوجدنا أن الأمطـار قد انقطعت ، وكشفت السماء الصافية ، التى تتالق فيها بقايا النجوم ، التى يبدو ضوء الشفق بريقها تدريجيا ..

ورفع كابتن (أورم) راسـه إلى اعلى ، وهو يقول :

ـ تعالوا نستكشف ذلك المكان ، ونصعد فى هذا الدرج هناك .

رحنا نصعد فى درجات السلم المرتفع ، حتى وجدنا انفسنا على قمة احد ابراج سور مدينة (هرمق) ، نطل على واد فسيح يتوسطه تمثـال حيوان بالغ الضخامة ، يشبه تمثال (ابى الهول) ، ووجـدت نفسى أهتف فى انفعال :

ـ إنه معبود (الفنج) .

غمغم (أورم) فى حزن :

ـ كم أتمنى لو اننى انا الذى لقى مصرعه ، بدلا من (هيجـز) ، حتى لا يحـرم رؤية ذلك الأثر الهائل .

وصمت لحظات ، ابتلع خلالها حزنه ، قبل أن يضيف :

ـ هيا نهبط ، فقد يمكننا الفرار ، قبل ان ينقشع ضباب الفجر .

اجبته فى انفعال :

ـ انتظر .. انظروا إلى تلك الصخرة هناك .. تلك التى تربض فوقها النسور ، والتى يحيط بها الضباب .. إنها الصخرة البيضاء ، التى قال (القط) إنها بداية سلسلة الجبال ، التى تنتهى فى (المور) .. هيا نتجه إليها ، فقد يكون هذا هو فرصتنا الوحيدة للنجاة .

هبطنا إلى حيث تركنا الجمال ، ورحنا نفحص ابواب جدار (هرمق) الضخم ، ووجدناها من النحاس والبرونز ، وقد علاها الصدا ، وهى مغلقة من الداخل ، وبها فجوات منتظمة ، يستخدمها ـ ولا شك ـ فرسان (الفنج) ، فى إطلاق سهامهم على الأعداء ..

وانحنيت لألقى نظرة عبر إحدى الفجوات ..

ثم تراجعت فى رعب ..

لقد كان هناك بعض فرسان (الفنج) ، يندفعون نحونا ، والشر يطل من عيونهم ، فصرخت مذعورا :

ـ الفرسان يهاجموننا .

انطلقت أعدو نحو الجمال ، فى حين راح (أورم) و (كويك) يصليان فرسان (الفنج) نيران بندقياتهما ، حتى سقط نصف الفرسان صرعى ، وفر النصف الآخر ، إلا أننا لم نلبث أن فوجئنا بفريق آخر من الفرسان ، يعتلى الأسوار ، ويهاجمنا مطلقا علينا السهام فى شراسة ، فقال (كويك) فى حزم :

ـ اتركوا لى أمرهم .. سألقن هؤلاء الأوغاد درسا .

قالها وتسلل كقط حذر نحو الأسوار ، ورايته يدس أحد الغامه فى قاعدة السور ، ثم يتراجع فى خفة ، هاتفا :

ـ أسرعوا .

لم يكد يتم عبارته ، حتى دوى انفجار رهيب ، وسقط بعض (الفنج) قتلى ، فى حين جفلت جياد البعض الآخر ، وراحت تعدو متراجعة ، فى حين انطلقنا نحن على ظهور الجمال ..

وصاح أحد (الأباتى) فى ذعر :

ـ إنهم يطاردوننا ..

التفت لأجد فريقا من (الفنج) يطاردنا ، ولم أكد أعتدل حتى رأيت جيشا من الفرسان ينقض علينا ..

لقد وقعنا بين المطرقة والسندان ..

وهوى قلبى رعبا ويأسا ، لولا ان هتف كابتن (أورم) :

ـ يا إلهى !.. هؤلاء الذين أمامنـا ليسوا من (الفنج) .

اسرعت اضع منظارى المقرب على عينى ، واتطلع إلى حيث يشير ، فوقع بصرى على أعلام (الأباتى) الخضراء ، وعليهـا تلك الكتابات العبرانية ، التى تتوسطها صورة عرش (سليمان) ..

واسرعنا نحو فرسان (الأباتى) ، ولم نكد نبلغهم حتى برزت من بينهم امرأة فى نقاب ابيض ، وثوب ناصع البياض ، وسألتنى بلغتهم :

ـ من القائد هنا ؟

أشرت إلى (أورم) ، الذى يكاد يسقط من فوق جمله ، من شدة الإجهاد والإعياء ، فخاطبته فى لهجة تشف عن اصلها النبيل :

ـ ماذا حدث يا سيدى ؟

سألها فى حزم :

ـ هل لى ان اعلم اولا من اخاطب ؟

رفعت راسها فى اعتزاز ، وهى تقول فى ترفع :

ـ أنا الملكة (مجيـدة) ، ابنة الملوك والحكمـة والجمال ، وشعارى على جبينى ينطق بصدقى ..
ورفعت النقاب عن وجهها الفاتن الساحر ..
وتراجع (أورم) مبهوتا ..
بل مشدوها ومسحورا ..
لقد رأى امامه حورية من حوريات الجنة ..
رأى حفيدة (سليمان) ..

***

٣ ـ السلطان ..

يمكن القول ، دون ادنى قدر من المبالغة ؛ ان (مجيدة) قد سحرت (اورم) تماما ..

لقد رايته وقد نسى كل تعبه وإجهـاده ، وهو يحدق فى وجهها الفاتن ، وجمالها الطاغى ، قبل ان يتمتم مبهورا مشدوها :

ـ اانا فى حلم ؟!.. آمـراة هى ام حورية من حوريات الجنة ؟

سالتنى (مجيدة) فى حيرة :

ـ ماذا يقول صاحبك ؟

ترجمت لها حديثه بكل أمانة ، فتضرج وجهها بحمرة الخجل ، واسرعت تسدل النقاب على وجهها فى حياء ، فتنحنح الكابتن حرجا ، واعتدل قائلا فى حزم ، بدا وكانه محاولة للسيطرة على مشاعره :

ـ يجب ان نعجل بالهجوم على (الفنج) قبل ان يستعيدوا جاشهم .

ولكن (مجيدة) اجابته فى هدوء ، باللغة العربية التى يجيدها (اورم) :

ـ يجب أن أستشير مجلسى اولا .

ثم التفتت مستطردة فى لهجة آمرة :

– أين عمى الأمير (جوشيا) ؟

وتقدم نحوها فارس شاب ، متين البنيان ، يرتدى حلة شرقية ثمينة ، ودرعا وخوذة كفرسان الغرب ، وسألته (مجيدة) :

– لقد تهدم جزء من السور كما ترى ، افتجدها فرصة مناسبة لغزو (الفنج) ، أم انه علينا ان ننتظر ، حتى يهاجمونا هم .

حدق فى وجهها بدهشة ، وهتف مستنكرا :

– هل أصابك الجنون يا ابنة الملوك ؟.. إننا لا نزيد على خمسمائة رجل ، أما هم فعددهم يربو على العشرة آلاف .

هتفت غاضبة :

– ولكننى ارغب فى مهاجمتهم ، فمن يتبعنى ؟

صاح بعض رجالها يؤيد قولها ، إلا انها اضافت فى مرارة :

– يؤسفنى الا استطيع هذا فعلا ، فرجالى لم يخلقوا للحرب والقتال .

سرت همهمة غاضبة بين رجالها ، واستل عمها سيفه ، هاتفا فى صوت جهورى :

ـ انت تعرفين مدى شجاعتى وجراتى ، وتعلمين كم قتل هذا السيف من (الفنج) و ...

قاطعه (اورم) فى صرامة :

ـ اعد سيفك إلى غمده يا رجل .

بدا العناد على وجه الرجل لحظة ، لولا ان ظهر ثلاثة من فرسان (الفنج) يتجهون إلينا ، وقد اخفى احدهم وجهه بقناع ابيض ، به ثقوب للعينين والفم ، فتراجع (الاباتى) فى خوف وقلق ، فى حين بقيت (مجيدة) قوية متماسكة ، وهى تقول فى حزم :

ـ إنهم رسل (الفنج) دعنا نر ماذا يريدون .

اقبل الفرسان الثلاثة ، حتى توقفوا امامنا ، والقوا علينا التحية فى ادب واحترام ، ثم قال احدهم :

ـ لقد اتينا يا (ام النجاشى) وابنة (سليمان) ، لنتحدث إلى البيض الثلاثة ، الذين قتلوا العديد من رجالنا ، وهدموا احد اسوارنا ، وارسلوا البرق والرعد إلى صدور فرساننا .

سألته (مجيدة) فى ترفع :

ـ ماذا تريدون منهم ؟

اجابها :

ـ لقد سقط رابعهم أسيرا لدينا ، وحكم عليه كهنتنا بالموت ، ولكننا مستعدون للإبقاء على حياته ، كما فعلنا مع (مطرب مصر) وكاهن (هرمق) ، مقابل أن ينضم البيض الثلاثة إلينا ، لا إليكم .

قال (أورم) فى حزم :

ـ إننا نشكر سلطانكم على عرضه هذا ، ويؤسفنا أن اضطررنا لقتل عدد من رجاله ، دفاعا عن أنفسنا ، ونحن نعترف بأن (الأباتى) قوم جبناء ، ولكن ملكتهم إمراة عظيمة ، كبيرة القلب ، ولقد وصلنا هنا على متن جمالها ، وبغرض خدمتها ، وهذا يضطرنا لرفض عرض سلطانكم ، مع عظيم الأسف .

هز الرجل راسه متفهما ، عندما استمع إلى رد (أورم) ، ثم التفت إلى (مجيدة) يقول :

ـ سلطاننا العظيم (بارونج) يوجه إليك الدعوة نفسها ، وانت تعلمين ما يحمله لك من احترام وتقدير وتوقير ، وهو يدعوك إليه على الرحب والسعة ، ويعدك بأن يضعك على راس زوجاته ، أو يترك لك حرية الزواج بمن تشائين .

قال عبارته الأخيرة ورمق (أورم) بطرف خفى ، وكأنما يعنيه بها بالذات ، قبل أن يتابع :

ـ اتركى قومك الجبناء وانضمى إلينا ، يفتديك رجالنا بارواحهم ، فلقد اديت واجبك على خير ما يرام ، ولولاك لصار شعبك ملكا لنا منذ سنوات ، ونحن نعلم انك قد لجأت إلى هؤلاء البيض ؛ ليهدموا معبودنا بسحرهم ، بعد أن وعدتهم بكنوز وذهب ملوكنا الأقدمين .

سألته (مجيدة) فى خفوت :

ـ من اخبرك بهذا ؟.. اهو اسيركم الأبيض ؟

هز الرجل راسه نفيا فى هدوء ، وقال :

ـ لا يا (ام النجاشى) ، بل هو (القط) .. والآن ما جوابك يا زهرة (المور) ؟

اعتدلت (مجيدة) فى مجلسها ، فوق صهوة جوادها ، وبدت لى على ما اروع ما تكون ملكة ، وهى تقول فى حزم :

ـ لقد اقسمت بشرفى ان احمى (المور) حتى النهاية .

ابتسم الرجل وقال :

ـ لن تحنثى بشرفك يا زهرة (المور) .. سينقى ملكنا هذه المنطقة من الجبناء ، ثم يوليك عليها مرة اخرى ، فتصبحين ملكة على ارض تتيهين ببسالة فرسانها .

وفجأة رفع الفارس المقنع قناعه ، والقاه على الارض بحركة سريعة ، وبدت ـ لاول مرة ـ اساريره النبيلة ، وبشرته النحاسية ، ووجهه الذى يشف عن سنوات عمره المقاربة للخمسين ، وقد اطلق لحيته ، وتألقت قلادة فرعونية قديمة على صدره ، فترجل الفارسان الآخران عن جواديهما ، وسجدا امامه هاتفين :

ـ (بارونج) .. (بارونج) .

وامام فيض الهيبة المتدفق من الرجل ، لم نملك إلا ان نحييه فى احترام بالغ ، ولم يسع (مجيدة) سليلة الملوك إلا ان تنحنى له ، فرد تحيتنا برفع رمحه فى عظمة وهيبة ، قبل ان يقول :

ـ لقد سمعت يا (ام النجاشى) و (زهرة المور) ويا رجال الغرب ما قاله خادمى بأمر منى ، ويؤسفنى مطاردة رجالى لكم ، فما يليق بفرقة كاملة من الفرسان ان تطارد اربعة رجال ، ولكننى امد لكم يدى ، وارجو سليلة الملوك ان تقبل صداقتى ، فلست احب ان اتورط فى مقاتلة جيش ضئيل من الرعاديد ، لا يستحق سوى الازدراء او الشفقة ، وإلا فإننى سأنتقم لهدم معبدى ومعبودى شر الانتقام ، وسيكون الأسير الأبيض كبش الفداء .

ضربت (مجيدة) مقدمة سرجها بقبضة يدها ، وصاحت :

ـ محال يا (بارونج) .. لن اخضع لكم واعبد معبودكم ، متخلية عن دينى الحق ، الذى آمن به (سليمان) وحفدته .. إنه من المستحيل ان تخضع عقيدة حقة لصنم قد من حجر ، اما رعيتى ، التى اعترف بجبنها وخنوعها ، فإننى افضل لها موتا شريفا ، على حياة هى الرق والعبودية والجحيم ، وانتقامك لمعبودك لا يهمنى او يردنى ، ما دمت احطمه فى سبيل الله (سبحانه وتعالى) ، خالقى وإلهى .. واذبحنى لو ان هذا قدرى .

وصمتت لحظة ، ثم اضافت فى حزم :

ـ هذا جوابى كملكة لشعب يدين لها بالولاء ، اما كامراة ، فانا اشكر لك عواطفك وادبك الجم .

ران الصمت لحظات ، ثم سالها السلطان :

ـ اهذا جوابك النهائى ؟

رفعت راسها فى اعتزاز ، وهى تقول :

ـ نعم .. وبقى ان اعلن هؤلاء الاصدقاء البيض اننى احلهم من وعدهم ، فلا معنى لأن يلقوا بأيديهم فى التهلكة ، فى سبيل حرب خاسرة ، واذكرك بانك

قد ضمنت لهم الحرية والإبقاء على حياتهم ، لو انضموا إليك ، وكذلك على حياة زميلهم الرابع ، الذى تحتفظون به اسيرا ، ثم إن لديك اسيرا آخر ، تطلقون عليه اسم (مطرب مصر) ، هو فى الواقع ابن احدهم ، ولست اظنك تضن بالولد على والده .

توقفت منتظرة جواب السلطان ، ولكنه بقى صامتا ، يتطلع إليها ، فالتفتت إلينا مستطردة :

ـ اذهبوا إليه ايها الاصدقاء ، واشكر لكم رحلتكم الطويلة من اجلى ، وسارسل لكم هدية ضخمة من الذهب ، وربما التقينا فى حرب قريبة .. الوداع ايها الاصدقاء .

كان من الواضح انها ترقبنا من خلف نقابها فى اهتمام شديد ، وكانها تنتظر معرفة ردود افعالنا ، وكذلك راح السلطان يراقبنا بنفس الاهتمام ، متخللا شعر لحيته الكثة باصابعه ، حتى قال كابتن (اورم) :

ـ يمكننى ان اتحدث عن نفسى ، وعن الجاويش (كويك) ، فاقيد نفسينا بالوعد الذى قطعناه للملكة ، وارفض بكل اسف عرض السلطان ، فنحن نرى ان هذه الملكة الشجاعة تناضل من اجل شعبها ودينها ، ونحن نقدر كثيرا مثل هذه الحروب .

كان من المؤلم والعسير بالنسبة إلى أن اتخذ قرارى ، فقد كان يعنى التضحية تماما بولدى ، من اجل التمسك بوعد لامراة تحكم شعبا من الجبناء ، ولكن السلطان لم ينتظر جوابى ، وإنما قال فى اسف :

ـ كم تمنيت لو جاء جوابكم بغير هذا ، ولكن يبدو انكم تحترمون الوعود كثيرا ، وتضحون بكل مرتخص وغال فى سبيل ذلك ، على اية حال استودعكم الله ، متمنيا لو ان (مجيدة) تحكم شعبا آخر ، غير هذا القطيع من الجبناء ، الذى لا يستحق شيئا من مزاياها العظيمة .

ثم مد يده إليها ، قائلا :

ـ هاتى يدك يا (ام النجاشى) .. ساعود بك إلى قومك .

ناولته كفها الرقيقة ، فقادها فى رفق إلى حيث قومها ، ولم يكد يقترب منهم حتى انقض عليه بغتة العم (جوشيا) مشهرا سيفه ، وخلفه بعض الرجال ، وهو يصيح :

ـ لقد وقعت يا (بارونج) .. اخضع لنا او نقتلك .

كان السلطان قد تخلى عن سلاحه ، تعبيرا عن

ولم يكد يقترب منهم حتى انقض عليه بغتة العم (جوشيا) مشهرًا سيفه ، وخلفه بعض الرجال ..

حسن نيته ، وهو يقود (مجيدة) إلى قومها ، لذا فقد احتقن وجهه غضبا ، وهو يصيح :

ـ ايها الجبان الخنزير .. لو اننى احمل سيفى للقى احدنا مصرعه حتما ..

ثم التفت إلى (مجيدة) ، مستطردا :

ـ هذا الخلق الوضيع يشف عن جبن ، هو سر احتقارنا لشعبك هذا .. اترين كيف يحاربون رجلا اعزل ؟

صرخت (مجيدة) فى عمها حانقة :

ـ اخفض سلاحك هذا يا (جوشيا) .. إنك تجلب لنا العار باسلوبك المشين هذا .

ولكن (جوشيا) هتف فى عناد :

ـ الصيد اثمن من ان اتركه بهذه البساطة .

مال الكابتن على اذنى ، هامسا :

ـ سامنع هذه الخدعة القذرة ، وساطلق النار على راس (جوشيا) القذر هذا ، لو هم بمس السلطان بادنى سوء .

لم يكد الجاويش (كويك) يستمع إلى حديثنا حتى وضع الفكرة موضع التنفيذ على الفور ، واطلق النار بين قوائم جواد (جوشيا) ..

وجفل الجواد مذعورا ..

وسقط (جوشيا) ارضا ..

وفى غمرة الهرج الذى حدث ، اندفعنا نحو السلطان ، واحطنا به وبجواده إحاطة السوار بالمعصم ، حتى اخرجناه من وسط الحصار ، وسلمناه إلى حارسيه ، اللذين كاد قلباهما يتوقفان من شدة خوفهما على سلطانهما ، الذى قال لنا فى امتنان :

ـ إننى ادين لجراتكم وشجاعتكم بحياتى .

ثم نزع قلادته الفرعونية الذهبية القديمة ، ووضعها حول عنق الجاويش (كويك) ، وانطلق على جواده عائدا إلى حصنه ، بصحبة حارسيه ..

وهتفت (مجيدة) فى صرامة :

ـ سنتخذ طريق العودة .

وكالكلاب المذعورة ، وضع رجالها اذنابهم بين سيقانهم ، واطاعوها صاغرين ..

وكان علينا ان نبدأ مرحلة جديدة ..

ومخيفة ..

***

٤ ـ مدينة الملكة ..

لم نكن نتصور ابدا ان طريقنا من السهول إلى مرتفعات (المور) وعر على هذا النحو ، فقد كان الصعود اشق مما يمكن تصوره بكثير ، فالواضح ان هذا الطريق لم يصنعه بشر ، وإنما صنعه تدفق المياه من المرتفعات إلى البحيرات ، التى كانت تغطى فيما مضى السهول كلها ، قبل ان تقتصر على مساحة محدودة من الماء ، لا يتجاوز طولها الخمسة والعشرين كيلومترا ، ولا يزيد اتساعها على الخمسين كيلومترا ..

وهذا الطريق يتسع فى بدايته ، بحيث يسمح بسير ثلاثة جياد متجاورة ، ثم لا يلبث أن يضيق ، حتى يكاد لا يتسع إلا لجواد واحد ، وترتفع على جانبى الطريق حوائط صخرية إلى عدة مئات من الأمتار ، وتبدو السماء فوقها كشريط ازرق ، وتعجز الشمس عن إلقاء ضوئها وسط ظلمة الممر ، إلا لحظات معدودات ، فى منتصف النهار ..

وبين حين وآخر يختفى احد الجدارين ، تاركا هوة سحيقة ، تتجاوزها الجياد وهى ترتجف ، عبر شريط الممر الضيق ، هذا إلى جانب عشرات

البوابات ونقاط الحراسة ، التى تضافرت مع عوامل الطبيعة ، لتمنع (الفنج) من غزو بلاد (الأباتى) ، على الرغم من جبن وضعف الفئة الأخيرة ..

وسار بنا الموكب العجيب ، يتقدمه نبلاء (الأباتى) على صهوات جيادهم ، تليهم فرقة مسلحة ، تتوسطها الملكة (مجيدة) ، ثم الحاشية والضباط ، ونحن بينهم ، وفى النهاية فرقة مسلحة اخرى ، عليها حماية المؤخرة طيلة الوقت ، حتى بلغنا بوابة (المور) فى نهاية النهار ..

وكان المشهد رائعا ..

سلسلة من جبال تحيط بسهول واسعة ممتدة ، تناثرت فيها المزروعات والنباتات واشجار النخيل ، وبينها اقيمت بيوت ومنازل متناثرة ، تحيط بكل منها حديقة انيقة ، وعلى مدى البصر هناك بحيرة فضية ، التفت حولها اكواخ الرعاة والزراع ، على نحو يؤكد أن (الأباتى) ، على الرغم من عيوبهم ، فلاحون وزراع مهرة ..

واستقبلتنا جماهير المدينة استقبالا حافلا ، وراحت تهتف بحياة الملكة والقواد ، حتى بلغنا القصر الملكى ، ذا القباب الذهبية ، الذى اتيحت

لى زيارته من قبل ، ولم يكد يستقر بنا المقام فيه ، حتى سأل (جوشيا) (مجيدة) فى غلظة :

ـ هل سيقيم ضيوفك فى مساكن الحجاج بالمدينة الغربية ؟

كان يتحدث بأسلوب استفزازى متعمد ، إلا أن (مجيدة) بدت هادئة ، وهى تجيبه فى بساطة :

ـ لا يا عماه .. سيقيمون هنا فى قصرى .. فى جناح الضيوف .

احتقن وجهه غضبا ، وهو يهتف مستنكرا :

ـ فى قصرك ؟!.. محال .. محال .

سألته فى ضيق :

ـ لماذا يا عماه ؟

أجابها فى سخط :

ـ أنسيت انك لم تتزوجى بعد ، وأننى لا اقيم بالقصر لأسهر على حمايتك ؟

أجابته هى فى حزم :

ـ لم انس هذا ابدا ، ولكننى استطيع السهر على نفسى ، وارى انه من الواجب ان يقيم ضيوفى فى مكان آمن ، إلى جوار امتعتهم .. اذهب انت لتحصل على قدر من الراحة ، وسارسل لك طبيبى

الخاص ، ولا تنسى ان تشكر الله على نجاتك من المهالك .

امتقع وجه (جوشيا) لتلك السخرية المغلفة بإطار مهذب انيق ، وبدا وكانه سيجيب بعبارة فظة ، لولا ان غادرت (مجيدة) المكان فى خطوات سريعة ، فضرب قبضته فى الحائط فى غيظ ، وانصرف خلفها ناقما حاقدا ، ولم ينس فى انصرافه ان يرمق الجاويش (كويك) بنظرة قاسية ، تشف عن حقده الخاص نحوه ؛ لانه المتسبب فى وقوعه من فوق صهوة جواده ، وإصابة ضلوعه بتلك الكدمات ..

ولكن هذا لم يقلق (كويك) كثيرا ..

لقد كان هناك امر آخر يقلقه ..

امر الكابتن (أورم) ، الذى كان قد اصيب بجرح سطحى ، فى اثناء نسف سور (الفنج) إلا ان تلوث هذا الجرح قد اصابه بحمى ، راحت تتزايد تدريجيا ، حتى اشتدت وطاتها عليه مع بلوغنا القصر ، فلم يكن منا إلا ان نقلناه إلى فراشه ، ورحت اداويه بالماء واللبن ، حتى يشفى من الحمى ..

ولقد اهتمت الملكة (مجيدة) بأمره كثيرا ، وارسلت تسأل عن صحته مرتين ، طوال الليلة

التى سهرتها إلى جواره ، ولم تكد تشرق الشمس حتى اصطحبت طبيبها الخاص إلى حجرة (اورم) ، وسألتنى فى قلق :

ـ هل سيحيا ؟

اجبتها فى خفوت :

ـ لا يمكننى البت فى هذا الأمر حتى الآن ، فانا اخشى ان يصاب بالتسمم من تلوث الجرح .

ادهشنى أن تمتمت فى جزع :

ـ انقذه ارجوك .. ابذل ما بوسعك لاجله ، وسأمنحك كل ما تطلب .

ثم انتبهت فجأة إلى لهفتها البالغة ، فأضافت فى خفوت :

ـ اغفر لى ، فلقد نسيت انه صديقك ، وانك لا تدخر جهدا لمداواته .

طمأنها قائلا :

ـ سأبذل اقصى جهدى يا مولاتى .. اطمئنى .

اما طبيبها ، فقد راح يتبارى معى فى وصف انواع من الدواء والعلاج ، لو تناول منها (اورم) جرعة واحدة لقضى نحبه على الفور ، لولا ان رحت استبدل بها انا ادوية اخرى منطقية ..

ومرت ثلاثة ايام بطيئة ، امتلأت فيها نفوسنا بالشك والقلق ، إلا ان الكابتن لم يلبث ان تماثل للشفاء ، ولم تقو الملكة على كتمان سعادتها وسرورها بذلك ، وراحت تولى (اورم) المزيد من العطف والحنان ، حتى انه لم يكد يغادر فراشه سليما معافى ، حتى راح يختلى بها كثيرا ، ويتبادل معها الاحاديث الهامسة ، مما اصابنى بالقلق ، فقلت له مرة :

ـ حذار يا صديقى .. من الخطر على شاب مثلك ان يوثق صلته بالملكة .

قهقه ضاحكا ، وقال :

ـ اطمئن يا صديقى ، فقوانين هذه المملكة تحتم زواج الملكة من احد اقاربها ، ومن المستحيل ان ترتبط بى انا .

ثم اضاف فى جدية واهتمام :

ـ قل لى : هل بلغتك اخبار عن (هيجز) او ولدك (رودريك) ؟

قلت فى ضيق :

ـ يلوح لى انه من الاجدى ان تبلغنى انت ما لديك من اخبار ، فانت لصيق بالملكة ، وتعلم عنها ما يجهله حتى عمها .

ابتسم واجاب :

ـ لقد ابلغتنى ان كليهما فى صحة جيدة ، وانهما يعاملان معاملة حسنة ، ولكن السلطان (بارونج) يعزم التضحية بـ (هيجز) بعد اسبوعين ، وانا اعتزم بذل حياتى ، لو اقتضى الامر ، فى سبيل منع هذا .

وصمت لحظة ، ثم اضاف :

ـ وهذا هو محور احاديثى الهامسة مع (مجيدة) ، بخلاف ما تصورت انت .

قلت فى اهتمام :

ـ يجب ان نتحرك على الفور ، فقد تم لك الشفاء ، ولم يعد هناك مبرر للتلكؤ .

قال فى حماس :

ـ سابذل اقصى ما يمكننى لتخليص (هيجز) ، حتى لو اقتضى الامر ان ابدله بنفسى ، عند سلطان (الفنج) .

ومال على ، مستطردا بمزيد من الحماس :

ـ استمع إلى .. ستعقد (مجيدة) مجلسها الاكبر بعد ثلاثة ايام ، وستحاكم خلاله (القط) ، واغلب الظن انها ستحكم عليه بالإعدام ، وبعدها

سنعرض ما لدينا ، لنصل إلى قرار حاسم .

واعتدل فى حزم ، مستطردا :

ـ ولنبدأ عملية الإنقاذ .. مهما كان الثمن ..

ودوت العبارة الأخيرة فى رأسى ..

« مهما كان الثمن .. »

وارتجف جسدى فى خوف ..

* * *

٥ ـ الحياة والموت ..

لم يرق لى ابدا ذلك الأسلوب ، الذى حضرنا به مجلس الملكة ، بعد مرور تلك الأيام الثلاثة ..

لقد قادنا الحرس إلى المجلس ، كما لو اننا نحن السجناء ، ووجدنا المئات من (الأباتى) هناك ، وقد جلسوا فى صفوف منتظمة ، أمام (مجيدة) ، التى جلست على عرش من ذهب ، ينتهى ذراعاه براسى أسدين ، وهى ترتدى ثوبا من خيوط الفضة اللامعة ، وتخفى وجهها بقناع موشى بنجوم فضية ، وقد احيطت قمة راسها بدائرة من الذهب ، تتوسطها ياقوتة حمراء ساطعة ..

وعلى الرغم من جسدها الضئيل ، بدت زهرة (المور) فاتنة ، ساحرة ، مهيبة ، وقد وقف جنودها المدججين بالسلاح خلف عرشها ، فى حين احاط بها قوادها وضباطها وقضاتها ، فى ثيابهم الرسمية الأنيقة ، وعدد من وصيفاتها فى ابهى حللهن ..

وطالت محاكمتنا ، وانكر (القط) التهم الموجهة إليه ، وتم استدعاؤنا للشهادة ، وفى النهاية صدر الحكم بإعدام (القط) ، جزاء خيانته ، ومصادرة ممتلكاته ، وان تصبح زوجته واولاده عبيدا ارقاء ..

كذلك صدر الحكم على كل من شارك (القط) فى مؤامراته بالتجرد من الأملاك ، والالتحاق بالجندية ..

وانتهت المحاكمة بين نحيب وعويل المتهمين واقاربهم ، واصابتنا الدهشة من اساليب (الأباتى) واحكامهم ، وهتف الكابتن مستنكرا :

ـ اى خير فى امة يعاقب مجرموها بالجندية بدلا من السجن .

غمغمت محاولا تهدئته :

ـ هكذا اساليبهم .

هز راسه فى قوة ، مستنكرا ومعترضا ، إلا انه لزم الصمت ، ولم يشر إلى هذا الأمر مرة ثانية ، حتى حانت الاستراحة ، فتقدمت نحو سليلة الملوك ، ووضعت خاتم (بلقيس) على وسادة حريرية ، قدمها لها احد ضباطها ، وانا اقول :

ـ ايا سليلة الملوك وزهرة (المور) .. يشرفنى ان اعيد إليك خاتمك ، الذى يحمل دلائل الثقة المتبادلة بيننا ، والذى استطعت بواسطته حمل زملائى واصدقائى على اصطحابى فى رحلتى إلى هذه الجهات النائية ، إلى الحد الذى اوقع بأحدهم فى اسر وعبودية (الفنج) .

تناولت (مجيدة) الخاتم ، والقت عليه نظرة سريعة ، ثم ارته لكهنتها ، قبل ان تقول فى هدوء :

ـ شكرا لك ان اعدت هذا الكنز الاثرى الغالى لى ولرعيتى ايها الطبيب .

ووضعت الخاتم فى إصبعها ، واستطردت :

ـ انتم تعرفون قضيتنا ايها النبلاء .. (الفنج) يحيطون بنا ، ويتهددوننا بالويل والثبور وعظائم الامور ، وكما اخبرت الطبيب من قبل ، إننى اسعى إلى هدم معبد (الفنج) ومعبودهم ؛ لان هذا ـ فى عقيدتهم ـ نذير لهم بالهجرة من هذه الارض إلى بلاد اخرى ، طبقا لنبوءة وثنية قديمة .

قاطعها (اورم) :

ـ معذرة يا زهرة (المور) ، ولكنك سمعت مثلنا (بارونج) ، سلطان (الفنج) يهدد بالانتقام لهدم معبده ومعبوده .

ترددت همهمة ذعر وفزع بين الحاضرين ، إلا ان (مجيدة) ظلت على هدوئها ، وهى تقول :

ـ الاقوال غير الأفعال ، وهؤلاء الوثنيون يؤمنون بالنبوءة إيمانا مطلقا ، وسيدفعهم هذا إلى الهجرة فور تهدم معبودهم ، حتى ولو شاء ملكهم غير هذا .

ثم اعتدلت ، مستطردة :

ـ والآن .. هل تقسمون على خدمتى ؟

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن يقول الكابتن :

ـ ينبغى أن نعرف المطلوب منا أولا .

قالت عالية الراس :

ـ اقسموا على خدمتى ، والحرب من اجلى ، والخضوع لقوانينى ، وأن تبذلوا اقصى جهدكم لتدمير معبد (الفنج) ومعبودهم ، ولكم بعد ذلك مطلق الحرية فى البقاء أو الذهاب حيثما تشاءون ، مع مكافأة تبهر الأنفس .

ساد الصمت لحظات اخرى ، بدا خلالها ان الكابتن يفكر فى عمق ، قبل أن يسأل فى اهتمام :

ـ وأية مناصب سنشغلها لو فعلنا ؟

اجابته فى حزم :

ـ ستكون القائد الأعلى لهذه الحرب ، وستختار انت المنصب الذى يعمل فيه زميلاك .

سرت زمجرة غاضبة بين قوادها ، وارتفع من بينهم صوت يقول :

ـ أتعنين اننا سنضطر لطاعة هؤلاء الأجانب ؟

التفتت إلى مصدر الصوت ، وقالت فى صرامة :

ـ نعم .. ستفعلون هذا ، إلا إذا استطعتم إعداد

تلك المواد المتفجرة واستخدامها ، وهدم جزء من أسوار (هرمق) مثلهم .. هل تستطيع هذا يا عماه .

عقد العم (جوشيا) حاجبيه ، وصمت فى غضب ، فى حين سأل الكابتن الملكة فى اهتمام :

ـ لقد جعلتنى قائدا على جنودك يا مولاتى ، ولكن اخبرينى ، هل سيطيعوننى ؟.. هل يحمل كل منهم سلاحه ؟.. ثم من هم جنودك ؟

تطلعت إليه لحظات فى صمت ، ثم اجابت فى حزن :

ـ لا يمكننى منحك جوابا منطقيا ، بالنسبة للسؤال الأول ، فسيعود أمره إليك وحدك ، أما بالنسبة للسؤالين الآخرين ، فالواقع انه كان لجداتى وامهاتى جنود أشداء فيما مضى ، أما الآن فجنودنا ضعفاء جبناء ، والسلاح لا يكاد يكفى ثلثهم ، وهو لا يعدو الرماح والسهام والأقواس ، و ...

اختنق صوتها فى حلقها ، حتى انها لم تستطع إتمام حديثها ، ثم لم تلبث ان انفجرت بغتة باكية وسط مجلسها ، فسمعت الجاويش (كويك) إلى جوارى يتمتم :

ـ اللهم عاون هـذه الملـكة الوحيـدة المنكوبة بشعبها .

وهنا نهض الأمير (جوشيا) ، واتجه إليها ، وركع أمام عرشها ، وهو يقول فى صوت حمل الكثير من انفعاله :

ـ لمـاذا تحزنيننا بهذه العبارات يا سليلة الملوك ؟ ألسنا فى حمى (سليمان الحكيم) ؟

تمتمت من وسط دموعها :

ـ (سليمان) لا يحمى إلا من يحمون انفسهم .

أشار إلى صدره ، قائلا :

ـ أليس لديك قواد شجعان ؟.. أليس لديك عمك وابن عمك ؟

غمغمت فى مرارة :

ـ وماذا يفعل القادة بلا جنود ؟

قال فى حدة :

ـ لقد رايت بنفسك كيف كنت على وشك ذبح (بارونج) ، لولا تدخل ضيوفك البيض .

انتفضت فى مجلسها ، وقالت فى صرامة :

ـ وكنا سنخسر شرفنا أيضا يا عماه .

ثم رفعت ذراعها فى حدة ، هاتفة :

ـ لقد انفض المجلس ، وليحضر الكاهن ليقسم البيض امامه .

برز من خلف العرش رجل مهيب الطلعة ، واضح الوقار ، تلتمع تحت لحيته البيضاء الجواهر والأحجار الكريمة ، ويحمل فى يده اسطوانة ورقية ملفوفة ، كتبت عليها كل قوانين (الأباتى) ، منذ عهد (سليمان الحكيم) ، ووضع الرجل الأسطوانة الورقية امامنا ، وطالبنا بإلقاء القسم ، فقال الكابتن فى حزم :

ـ قبل أن نقسم ، نحب أن نؤكد أن ولاءنا الأول لوطننا ومليكنا ، ثم إننا نريد تعهدا من الملكة بمساعدتنا على إنقاذ زميلنا الأستاذ (هيجز) ، وابن الطبيب (رودريك) ، الذى يطلقون عليه اسم (مطرب مصر) .

أجابت الملكة بلا تردد :

ـ لكم هذا .

وعندئذ اقسمنا قسم الملكة ..

***

اعتدنا مع مرور الوقت نوم القيلولة ، الذى يقدسه شعب (الأباتى) كثيرا ، وفى يوم القسم ،

استيقظت فى الرابعة عصرا ، على صوت نباح (فرعون) ، فنهضت استطلع الأمر ، ووجدت امامى رجلا يرتجف خوفا من الكلب ، فسألته فى صرامة :

ـ من انت ؟

اجابنى فى سرعة :

ـ إننى رسول الملكة ، وهى تسأل عما إذا كنتم ترغبون فى مرافقتها إلى مكان لم تروه من قبل .

وافقته على الفور ، والتقيت مع (اورم) و (كويك) ، ورافقنا الرسول إلى فناء مهجور خلف القصر ، حيث وجدنا الملكة فى انتظارنا ، مع ثلاث من وصيفاتها ، وعدد من الرجال يحملون المشاعل ، ولم تكد ترانا حتى رفعت نقابها ، وابتدرتنا قائلة :

ـ لا ريب انكم قد رايتم الكثير فى حياتكم ، عبر رحلاتكم المختلفة ، ولكننى ساريكم اليوم اغرب شىء فى حياتكم كلها .

تبعناها إلى بهو كبير ، فى نهايته باب ضخم ، رفع الرجال مزاليجه ، فعبرناه إلى ممر طويل ، منحوت فى الصخور ، واغلق الرجال الباب خلفنا ، ومضينا فى الممر حتى بلغنا مغارة . .

بل هى اضخم مغارة رايتها او سمعت بها من قبل . .

وقالت (مجيدة) ، وهى تلوح بمشعل فى يدها :

ـ ها هو ذا كهف (المور) ، الذى نعتقد انه كان معقل اجداد (الفنج) فيما مضى ، اما هذه الجدران والاطلال هناك ، فقد كانت مخازنهم ومعابدهم ، ولكن زلزالا حطم كل هذا ، ودفعهم إلى الهجرة ..

تبعناها ثانية إلى اعماق الكهف الهائل ، ومشاعلنا تبدو داخله كنجوم خافتة ، عاجزة عن تبديد ظلمته ، من شدة ضخامته ، حتى بلغنا مكانا به اطلال واعمدة متهدمة وتتوسطه عدة تماثيل محطمة ، مغطاة بطبقة كثيفة من الاتربة ، لم تخف تماما شكلها الشبيه بـ (ابى الهول) ، فتنهد (أورم) ، وقال :

ـ ليت (هيجز) هنا .

وبعدها قادتنا (مجيدة) إلى نبع يتدفق فى قوة ، وقالت فى اسف :

ـ كان (الفنج) يستخدمون هذا الكهف كمخزن للمؤن ، فى حالة الحصار ، ولقد حاولت إقناع شعبى باستخدامه لهذا الغرض ، ولكن كل من الكبار يتردد فى التضحية ببعض إنتاجه كمخزون ، وهكذا لن ينقذنا شىء من الموت جوعا ، لو احتل (الفنج) سهولنا .

سارت امامنا ترينا إسطبلات الخيل ، التى كان (الفنج) القدماء يحفظون فيها جيادهم وعرباتهم ، ورحنا نعبر عدة ممرات ، انتهت إلى طريق واسع ، فى نهايته جدار أبيض ، لم يكد يراه اتباع الملكة حتى علا الرعب وجوههم ، فتقدمت هى إلى الجدار ، ونزعت منه حجرا كبيرا فى سهولة ، وقالت لوصيفاتها :

ـ كلكم تعتقدون أن هذا الجدار يسكنه الجن ، وتحوم حوله الأرواح ؛ لذا فسأترككم هنا فى حراسة الرجال ، وسأصحب الضيوف إلى داخله ، لأثبت لكم خطأ هذا الوهم .

وتناولت يد (أورم) ، وعبرت معه ثغرة الجدار فى هدوء ، وتبعتهما أنا والجاويش ، فوجدنا انفسنا فى كهف آخر ، ترتفع حرارته قليلا ، وسألها الكابتن :

ـ ما هذا المكان ؟

أجابته فى هدوء :

ـ مقبرة ملوك (المور) القدامى .

سرت فى جسدى رهبة من وقع الجواب ، ورحنا نسير وسط السكون ، ووقع أقدامنا يبدو واضحا على الأرض الصلبة ، والخفافيش تحوم حول ضوء المشاعل مضطربة خائفة ، وترتطم بالجدران ، حتى

عبرنا المكان إلى ما يشبه ساحة قتال ، فى مواجهتها عرش ضخم من الحجارة ، اتجهت إليه (مجيدة) ، ورفعت مشعلها أمامه ، قائلة :

ـ انظروا .

بدت لنا كومة من العظام البشرية فوق العرش الحجرى ، يعلوها تاج من الذهب ، وأمام العرش صولجان وخواتم وحلى من الذهب والمجوهرات ، وحوله عدد ضخم من العظام والجماجم البشرية ، اسفل كل منها الحلى التى كان يتزين بها أصحابها فى الدنيا ، وإلى جوارها أوان من الذهب ، تكتظ بالحلى والقلادات والأحجار الثمينة ، واكوام من نقود فضية وذهبية قدم عهدها ، وبطل تداولها ، ولما راتنا (مجيدة) مدهوشين مشدوهين ، اشارت إلى كل هذا ، قائلة :

ـ الجالس على العرش هو الملك ، وحوله ضباطه وحراسه ونساؤه ، وقد ذبحوا إلى جوار جثته ، ليسهروا على رعايته فى الحياة الأخرى ، وهذه حليهم ومجوهراتهم .

ثم اشارت بيدها ، مستطردة :

ـ هيا لتشاهدوا باقى الملوك .

ورفعت مشعلها أمامه ، قائلة : — انظروا .

بدت لنا كومة من العظام البشرية فوق العرش الحجرى ..

رحنا ننتقل من عرش إلى عرش ، ومن كنز إلى كنز ، حتى اصابنا السأم من تكرار المشاهد ، ولم يثر انتباهى سوى آنية احتشدت بآلات جراحية قديمة ، وعلمت ان العظام التى امامها هى عظام طبيب احد الملوك ، فملأت جيبى ببعض هذه الآلات القديمة ، لمقارنتها بآلاتنا الحديثة ، وشعرت (مجيدة) بما أصابنا من تعب وملل ، فقالت :

ـ سنعود الآن ، ولكن بقى ان تعلموا ان هذه الصخرة الضخمة امامنا هى الحاجز الذى يفصلنا عن معبود (الفنج) ، ونحن نعجز عن اجتيازها ، ولا نعلم إلى اى مدى تمتد .

عدنا ادراجنا بين العظام والجماجم ، وفى طريق العودة سأل الكابتن الملكة :

ـ ولكن اين تدفنون موتاكم حاليا يا سيدتى ؟

اجابته :

ـ فى الخارج ، فلم اكشف هذا المكان إلا منذ اعوام قليلة ، ولكن بالنسبة إلى اتمنى ان أدفن فى السهول ، لاقضى حياتى الآخرة بين الحشائش والزهور .

وفجأة انطفأ المشعل الوحيد لدينا ، وساد الظلام تمـاما ..

وسط القبور ..

***

كان موقفا مرعبا بحق ، أن نجد انفسنا وسط الموتى ، فى ظلام دامس ، ولقد صاحت (مجيدة) مذعورة :

ـ يا إلهى !!.. نسينا ان نحضر مصباحا آخر .. اسرعوا ، فما زلنا بعيدين عن مدخل المغارة .

راحت تعدو ممسكة بيد الكابتن ، وانا والجاويش نتعثر خلفهما ، فى محاولة للحاق بهما ، وسـمعنا الكابتن يهتف بنا :

ـ ابقيا فى مكانكما ، سنعود إليكما ، ولكن أطلقا صيحة بين وقت وآخر ؛ لنتعرف موقعكما فى يسر .

اجابه الجاويش (كويك) :

ـ سنفعل يا سيدى .

تردد صدى الأصوات من حولنا ، فارتجف قلبى رعبا ، واطلق (كويك) ضحكة عصبية ، وهو يقول :

ـ ليس للموتى اصوات .. إنما هو صدى اصواتنا .

حاولنا أن نبقى فى اماكننا ، كما امرنا الكابتن ، ولكن الرعب لم يمكنا من هذا ، فرحنا نتقدم فى بطء ، وارتطمت قدم الجاويش بجمجمة ، وسقط ارضا ، فاطلق صيحة رددت الجدران صداها ، فانحبست انفاسنا فى رعب ، وجلسنا نلهث لحظة ، بدت لنا اشبه بدهر كامل ، قبل ان يهتف (كويك) :

ـ يا إلهى !.. لقد نسيت اننى احمل فى جيبى علبة ثقاب ..

اخرج العلبة من جيبه ، واشعل احد اعوادها ، ثم شهق مبهوتا ..

لقد راينا امامنا مذبحا ذا درجات ،لم ننتبه إليه من قبل ، وعلى أول درجاته ، كانت (مجيدة) بين ذراعى الكابتن ، الذى انحنى على شفتيها ، والصق بهما شفتيه ، وهى ترتكن برأسها على صدره ، دون أن تبدو منهما حركة واحدة ، وكأنما استحالا إلى تمثالين من الرخام ..

ثم سعل (كويك) ، وهتف :

ـ كم يسعدنى ان عثرنا عليكما يا كابتن ..

يا إلهى !.. هل فقدت الملكة وعيها .. دعنى أعاونك يا سيدى .

التفت إليه (أورم) كالذاهل ، وحدق فى وجهه لحظات فى صمت ، ثم بدا وكأنما يستيقظ مع (مجيدة) من سبات عميق ، وهو يهتف :

ـ لا .. لا داعى لذلك .

ثم نهض يعاون الملكة على النهوض ، وانطلقنا جميعا نجتاز الكهف إلى الخارج ..

وعدنا إلى القصر ..

وقبل ان نستسلم للنوم ، قال (أورم) فى لهجة حالمة :

ـ يا لها من رحلة رائعة فى غياهب المجهول ! ، ويا له من فارق رهيب بين الموتى القدامى ، وسليلتهم المفعمة بالحياة والحب !!

بدا لى انه من الأفضل ان أواجهه بالموقف بكل صراحة ، فقلت :

ـ الواقع اننى قد تصورت ، عندما اشعل (كويك) عود الثقاب ، انك و (مجيدة) كنتما ...

ترددت فى إتمام العبارة ، فقال هو فى حزم :

ـ لم تكن واهما .. لقد كنت اقبلها ، فقد فجر

الموقف والظلام عواطفنا المكبوتة ولم نستطع كتمان مشاعرنا .

لذت بالصمت لحظات ، ثم غمغمت :

ـ يسعدنى أن ربط الحب بينكما يا صديقى ، ولكننى أخشى مغبة هذا .

قال كالحالم :

ـ إنها أجمل غادة وقعت عليها عيناى ، فى الدنيا كلها يا (آدمز) ..

لحظتها ايقنت من انه لا فائدة .. لقد ربط الحب بينهما ، ووقع وثيقة موتهما ..

وارتجف قلبى بين ضلوعى ..

وهوى ..

* * *

٦ ـ الأسـود ..

لم نكد ننتهى من تناول إفطارنا فى الصباح ، حتى اتى رسول الكة يدعونا لمقابلتها ، فذهبنا إليهـا ، ونحن نتساءل عن سر دعوتها لنا ، وعندما اجتزنا الممر الطويل ، الذى يقود إلى بهو العرش ، ملت على اذن (أورم) ، وهمست فى قلق :

ـ استحلفك بالخـالق أن تلتزم بكل الحـذر يا رجـل ، وأن تخفى مشـاعرك تجاههـا الآن ، فسيراقبون وجهك كما يراقبون كلماتك .

تضرج وجهه قليلا ، وغمغم :

ـ اطمئن .

تمتمت قلقا :

ـ كم اتمنى ان افعل .

استقبلتنا الملكة باسمة الثغر ، متهللة الأسارير ، وقالت :

ـ لقد دعوتكم لسبب هام ، فعندما هممنـا بإعدام (القط) الخائن ، تضرع لنـا أن نبقى على حياته ، حتى يمكنه ان يدلى إلينا بسر هام خطير ، قد يساعدنا على إنقاذ زميلكم (هيجز) .

هتفنا أنا والكابتن فى آن واحد :

ـ كيف ؟!

هزت رأسها قائلة :

ـ لست أدرى ، ولكننى رأيت أنه من الحكمة أن أرجىء قتله ، حتى تستمعا منه إلى ما لديه .

وأشارت بيدها ، ففتح باب جانبى ، دلف منه (القـط) وبداه مقيـدتان خلف ظهـره ، وقدماه مربوطتان بسلسلة من الصلب ، واندفع نحو الكابتن مستعطفا ، ولكن الحراس دفعوه أرضا فى عنف ، وقالت الملكة فى صرامة :

ـ ما الذى تريد أن تخبرنا به أيها الخائن ، قبل أن تلقى جزاءك ؟

قال وهو يرتجف :

ـ إنه سر بالغ الخطورة يا مولاتى ، فهل أتحدث به أمام الجميع .

صمتت لحظة مفكرة ، ثم قالت :

ـ لا .

وأمرت الحراس ومعظم الحاضرين بمغادرة المكان ، ثم التفتت إلى (القط) ، قائلة :

ـ هات ما لديك .

ازدرد (القط) لعابه فى صوت مسموع ، وقال :

ـ الإنجليزى (هيجز) مسجون فى المعبد الكبير .

سألته انا :

ـ كيف عرفت ؟

اجاب :

ـ انا اعلم هذا جيدا ، واستطيع ايضا ان ادلكم على طريق خفى إلى المعبد ، يمكننا بواسطته ان ننقذ (هيجز) من سجنه .. لقد اطلقوا على لقب (القط) ؛ لأننى اتسلق الجدران فى خفة ويسر ، وعندما القى (الفنج) القبض على ، القوا بى طعاما للأسود ، ولكننى نجوت بمعجزة ، واستطعت الفرار ، بعد ان اصابتنى مخالب لبؤة بهذا الجرح فى وجهى .

وراح يشرح ما ينبغى عمله ، حتى هتف الأمير (جوشيا) :

ـ إننى اعترض على ان تقحم مليكتنا نفسها فى مثل تلك الرحلة المحفوفة بالمخاطر ، والتى قد تنطوى على هلاك ودمار .

أجابته فى هدوء :

ـ أشكر لك قلقك على يا عماه ، ولكن إصرارى على خوض هذه الرحلة لا يعود إلى رغبتى فى إنقاذ الأبيض فحسب ، وإنما إلى وجود طريق سرى إلى معبد (الفنج) ، ينبغى لى أن أعرفه ، وعلى الرغم من ذلك فأنا أوافقك على ضرورة ذهابى مع حماية او حراسة ؛ لذا فأنا أرجو أن ترافقنى فى رحلتى .

ارتبك العم ، وراح يلتمس الأعذار والأسباب ، حتى قاطعته هى فى حزم :

ـ لقد سنحت الفرصة لتثبت شجاعتك ومهارتك وجراتك ، التى طالما تحدثت عنها يا عماه .. إنك ستذهب معنا .. هذا امر .

ولم يكن أمامه سوى القبول ..

***

قادنا (القط) ، عصر اليوم نفسه ، عبر ممرات جبلية طويلة ، إلى قمة جبلية ، تشرف على هوة سحيقة ، يبلغ عمقها الفين وخمسمائة متر تقريبا ، ولا سبيل إلى بلوغ قاعدتها ـ حسبما رايت ـ حيث تكثر السهول ، ولكن (القط) اتجه إلى جدار صخرى ، نبت العشب فوقه ، وازاح منه حجرا

كبيرا ، فانكشفت لنا فجوة واسعة ، تمتد إلى ممر طويل ، وهو يقول :

ـ لقد كشفت هـذا الممر منـذ كنت صبيا ، وليتبعنى فيه من يجد فى نفسه الشجاعة الكافية ، فهو شديد الوعورة والانحدار .

راح (جوشيا) يتضرع إلى (مجيدة) ان تتنازل عن فكرة خوض الممر ، ولكنهـا اجابت فى عنـاد وإصرار :

ـ ولمـاذا اتردد او اخاف ، ومعنا خيرة رجالنا فى تسلق الجبال ، ثم إن الطبيب ، الذى يبلغ عمره مثل عمر ابى ، لم يتردد فى المخاطرة ، فكيف افعل انا ؟ هيا يا عمى . . لا تتردد .

اضطر (جوشيا) إلى رفقتنا مرغما ، واتصلت الحبال بيننا جميعا ، وتقدمنا (القط) والجاويش ، ثم عدد من متسلقى الجبـال ، يحملون السـلالم والمصـابيح والوقود والطعام وخلافه ، ثم الملـكة والـكابتن و (جوشـيا) ، وخلفهم عدد آخر من متسلقى الجبال . .

ورحنا نهبط درجا شديد الانحدار ، انحنى إلى آخر اشد رطوبة عند الشرق ، وكاد (جوشيا)

يقتلنى ، عندما انزلقت قدمه ، فتشبث بذراعيه فى رقبتى خشية السقوط ، وكاد يقتلنى خنقا ، لولا ان اسرع احد متسلقى الجبال يبعده عنى ، فاصررت ان يتقدمنى ، حتى لا تتكرر المأساة . .

وعندما بلغنا المنحدر الثالث ، كان التعب قد بلغ من (جوشيا) مبلغه ، فاقسم الا يخطو خطوة واحدة ، وفشلت محاولاتنا وتاكيدات (القط) فى إقناعه بالعدول عن قسمه هذا ، حتى قالت (مجيدة) فى حزم :

ـ لا بأس ، فلتبق فى مكانك هذا حتى نعود ، وليس هناك ما تخشاه ، فلن تهاجمك الوحوش .

تمتم فى سخط :

ـ يا لك من إمراة لا قلب لها !!.. اتتركين عمك وحيدا ، فى هذا الجحر المسكون ، فى حين تتسلقين انت الصخور كقطة مسعورة ، مع جماعة من الاجانب ؟.. اما كان ينبغى ان تظلى إلى جوارى ؟

هتفت فى صرامة :

ـ ليقال إن سليلة الملوك قد جبنت عن الذهاب حيث ذهب الغرباء .. لا يا عماه .. لا والف لا .

لم يسعه إزاء حزمها وصرامتها إلا ان يعود لمرافقتنا ، وإن اضطر متسلقو الجبال لحمله طيلة

الطريق ، حتى بلغنا هضبة صغيرة ، تسللت إليها طلائع الفجر الأولى ، وانتشرت فى ارجائها اشجار واعشاب وطحالب ، نمت إلى جوار صخور ضخمة ، اشارت إليها الملكة ، قائلة :

ـ ما هذا ايها (القط) ؟

اجابها :

ـ إنه ظهر المعبود الكبير لـ (الفنج) يا سليلة الملوك .. إنه على هيئة أسد ضخم ، وذلك العمود هو ذيله ، وهذه الهضبة التى نقف عليها كانت فيما مضى نقطة مراقبة لكهنة (الفنج) ، عندما كانوا يملكون ارض (المور) ايضا ، وهناك جسر يهبطون منه إلى ذيل المعبود .

همست (مجيدة) إلى الكابتن :

ـ يبدو انه يتصل بـ (الفنج) ، عبر هذا الطريق .

ثم سألت (القط) :

ـ لماذا جئت بنا إلى هنا ؟

اجابها :

ـ لننقذ الإنجليزى ، فمن عادة (الفنج) ان

يسمحوا للمسجونين بالتجوال عند الفجر والغروب ، وارى ان نهبط إلى ذيل المعبود ، حتى نلتقى بالإنجليزى وننقذه ، والأفضل ان يصحبنى الكابتن ، حتى لا يستريب (هيجز) .

هتفت الملكة مستنكرة :

ـ ايها الأحمق .. اتتصور ان يخاطر الكابتن إلى هذا الحد ؟

قال (القط) فى خبث :

ـ هل تشكين فى شجاعته ؟

هتف به الكابتن :

ـ ويلك ايها الوغد !.. إياك ان تسىء إلى شجاعتى ، ولكنك قد ترمى بذلك إلى مكيدة ، تسلمنى بها إلى (الفنج) .

صاحت (مجيدة) بالكابتن :

ـ من الجنون ان تلقى بنفسك من الجبل ، وانت توقن بانك ستتهشم ارضا .

قال عمها فى لهجة ساخرة :

ـ ولكننا سمعنا الكثير عن شجاعة الأجانب ، فلم لا تمنحينهم الفرصة لإثبات هذا ؟

التفتت إليه ثائرة حانقة ، وقالت فى حدة :

ـ اليس من الافضل ان يثبت صاحب الدم النبيل انه لا يخشى إتيان ما يقدم عليه الغرباء ؟

شحب وجه عمها ، وانكمش على نفسه فى خوف ، فابتسم (اورم) فى سخرية ، وانحنى ينزع حذاءه ، وهو يقول :

ـ إننى افضل السير بالجورب ، فى المناطق الوعرة ، ولا يقلقنكم امرى ، فلقد اعتدت المخاطرة منذ صباى .

غمغمت الملكة فى قلق :

ـ ولكن هذا يفوق كل ما فعلت بالتاكيد .

أما الجاويش (كويك) ، فقد انحنى يخلع حذاءه بدوره ، مما جعلنى اساله فى دهشة :

ـ ماذا تفعل ؟

اجابنى فى حسم :

ـ سأرافق الكابتن .

قلت فى عناد :

ـ بل سارافقه انا ، فلست اقلكما استهانة بالمخاطر .

قاطعنا الكابتن صائحا :

ـ كفى .. انا القائد هنا ، وستطيعان اوامرى بلا مناقشة ، وانا امنعكما من مرافقتى .

قالت الملكة :

ـ فليرافقك احد متسلقى الجبال إذن .

والتفتت إلى احد رجالها ، قائلة :

ـ تعال يا (جانيت) ، ورافق السيد ، واعدك ان اهب لك او اهب إلى ورثتك قطعة ارض كبيرة ، لو اديت مهمتك كما ينبغى .

القينا سلما من الحبال إلى ذيل الأسد الحجرى ، ورحت استطلع المنطقة بمنظارى المقرب ، حتى لاح لى شبح ابيض عند راس المعبود ، ورجحت ان يكون (هيجز) ، إلا انه لم يلبث ان رفع عقيرته بغناء شجى رخيم ، جعلنى اهتف فى انفعال :

ـ إنه ولدى .. حمدا لله .. إنه لا يزال حيا .. آه لو نستطيع إنقاذه ايضا !!

وسالت الدموع على وجهى ، فربت الجاويش (كويك) على ظهرى ، وهو يقول :

ـ اهدأ ايها الطبيب ، ولتحمد الله على انه ما زال يحمل راسه على كتفيه .

ويبدو ان تهدئته هذه لم ترق لـ (القط) ، فقد قال فى برود :

ـ إنها ساعة إطعام الأسود المقدسة الآن ، و (الفنج) يحتفظون بها داخل مغارة ، عند قاعدة المعبد ، ولابد ان نعمل على إنقاذ الأستاذ الليلة ، فسيحتفلون بعيدهم ، وسيقدمونه قربانا لآلهتهم عندما يصبح القمر بدرا .

قالها وحاول ان يهبط سلم الحبال ، ولكن (مجيدة) صاحت :

ـ لا .. لن يعود هذا الخائن إلى اصدقائه (الفنج) .. انزل انت اولا يا (جافيت) ، وسيتبعك الكابتن .

راقبنا (جافيت) فى قلق ، وهو يهبط السلم ، متحسسا مواضع قدميه فى حذر ، حتى بلغ الصخرة المنشودة ، وهنا استدار الكابتن يصافحنى ويصافح (كويك) ، ثم انحنى للملكة ، التى شحب وجهها ، وبدا اضطرابها وحبها واضحين ، وهى ترد تحية (أورم) ، الذى اتجه إلى السلم وراح يهبط فى شجاعة وثقة ..

وفجأة انكسرت درجة السلم ، التى يضع ثقله عليها ..

وهوى من حالق ..

***

كانت لحظة وثبت فيها قلوبنا من بين ضلوعنا ، ولهثت فيها الملكة المحبة بفؤاد مزقه الهلع وأدمته اللوعة ، وبدا لنا جميعا أن (أورم) قد انتهى ..

ولكن شاء له القدر أن يحيا ..

وبحركة سريعة ، دفعته إليهـا غريزة البقـاء ، قفزت يده تتعلق بدرجة سليمة من درجات السلم ، وتشبث بها فى قوة ، وراح يلهث من فرط الانفعال ، فى حين تنفسنا نحن الصعداء ، وتمنيت لو لم يلحظ (جوشيا) دموع الارتياح والسعادة ، التى سالت من عينى الملكة ، ولكن زهرة (المور) لم تلبث أن جففت دموعها فى سرعة ، واعتدلت فى وقفتهـا فى حسم ، وهى تواصـل مراقبة الكابتن ، الذى بلغ موضع (جافيت) ، فاحتضنه هذا الأخير فى سعادة واضحة ، وراح الاثنان يتسلقان المنحدر الصخرى الأملس ، حتى بلغا كتفى الأسد ..

وفى تلك اللحظة ظهر الأستاذ (هيجز) ، وهو يسير الهوينى ويدون شـيئا ما فى مفـكرته ، بكل البساطة والهدوء ، وهنـا تقـدم إليه (أورم) ، وأمسك ذراعه فى قـوة ، فالتفت إليه (هيجز) ، وحدق فى وجهه فى ذهول ، ثم انحنى الكابتن على أذنه ، ورأيته يهمس بأمر ما ، علمت فيما بعد أنه

كان سؤالا عن موضع ابنى (رودريك) ، ثم رايت الأستاذ يلوح بيده فى اهتمام ، ويختفى خلف راس المعبود ، ومضت دقائق من السكون ، ثم تناهت إلى اسماعنا اصوات وصيحات عالية ، ورأينا الأستاذ يعدو بكل قواه صائحا فى الكابتن و (جافيت) :

ـ اهربـــا .. انجـــوا بنفســـيكما من هـــؤلاء المتوحشين .

اسرع الكابتن و (جافيت) يتســـلقان الســـلم ، ورأى الكابتن بعض (الفنج) يتســـلقون خلفهما ، فأخرج مسدسه ، وأطلق النار على رءوس بعضهم ، فسقطوا صرعى ، ورأى الباقون مصرع زملائهم ، فلاذوا بالفرار ، وهم يطلقون صيحات مخيفة ..

ولم يكد الكابتن يصعد إلينـــا حتى ألقى نفســـه ارضا ، وأخفى وجهه بين يديـــه فى الم ومرارة ، فربتت (مجيدة) على كتفه ، وقالت فى حنان :

ـ لمـــاذا يا عزيزى ؟!.. لقـــد كنت شـــجاعا صنديدا ، وعدت إلينا حيا ، وهذا يكفى .

هتف فى مرارة :

ـ ولكننى تركت اخى وصديقى (هيجز) خلفى ، وسيلقونه الليلة للأســـود ، ولقـــد اخبرنى هـــذا بنفسه ، وكان يكتب وصيته عندما لقيته .

لم تجـد ما تجيبـه به ، فالتفتت إلى متسلق الجبال ، وقالت :

ـ إننى فخورة بك يا (جافيت) ، وسأجزل لك العطاء ، واجعلك قائدا لمتسلقى الجبال .

تهللت أسارير (جافيت) فى سعادة ، فى حين سألت انا الكابتن :

ـ ماذا حدث مع (هيجز) ؟

اجابنى والحزن لم يفارق صوته بعد :

ـ لم اكد التقى بـ(هجيز) حتى سألته أن يرشدنا إلى موضع ولدك ، ولكن الحراس راوه يتحدث إلينا ، فكان ما كان .

ثم التفت إلى (القط) ، وامسكه من عنقه ، قائلا فى غضب مخيف :

ـ والآن حذار أن تكذبنا القول ايها الوغد .. لقد اخبرتنا انهم قد القوك طعاما لأسودهم ، ولكنك نجوت ، فكيف كان هذا ؟

هتف (القط) فى صوت مختنق :

ـ ارفع يدك عن عنقى ، واقسم ان اخبرك بكل ما حدث .

ترك الكابتن عنق (القط) ، الذى سعل فى شدة ، ثم أجاب :

ـ لقد حملنى (الفنج) إلى مكان إطعام الأسود ، والقونى بين اللحوم المقدمة لها ، ثم رفعوا ابواب الأسود بسلاسل تجذب من أعلى ، وانطلقت انا أعدو نحو التلال ، فى محاولة للنجاة ، ولكن ابؤة تبعتنى، وصفعتنى على وجهى بمخالبها ، التى تركت فى وجهى هذا الأثر ، ودفعنى جنون الرغبة فى الحياة إلى أن القى بنفسى فى الهاوية ، فرحت أنحدر فيها ، وأنا اتشبث فى جدارها بأظافرى ، ولكن اللبؤة اللعينة امسكت ساقى ، وجذبتنى بمخالبها وأنيابها إلى الخارج ، ثم تراجعت لتثب على مرة أخرى ، إلا اننى رايت حافة ناتئة بارزة ، على جانب الهوة ، فقفزت إليها بغتة ، واردت التعلق بها ، ولكنها انهارت تحت ثقلى ، وهويت إلى سرداب مظلم ، بقيت فيه نهارين وليلتين ، حتى عثرت على طريق للفرار .

رحنا ندرس الأمر طبقا لروايته ، واستقر راينا على أن يهبط الكابتن والجاويش وبعض متسلقى الجبال ، إلى حيث يحتفظ (الفنج) باسودهم ، وأن يرافقهم (جافيت) ، الذى تطوع باصطحابهم ، وأنا

أقف انا والبقية الباقية من متسلقى الجبال عند نهاية السلم ، حتى إذا ما حان موعد إطعام الأسود ، اعددنا بنادقنا ، وتأهبنا للقتال ..

وفى اللحظة المنشودة ، ارتجفت نفسى ، وانا اشاهد تلك السلة اللعينة ، التى تحوى طعام الأسود ، والأستاذ (هيجز) ، وهى تهبط إلى حيث الأسود ، التى صم زئيرها الأذن ، وهى تشم رائحة الطعام الآدمى الطازج ..

ولم تكد السلة تلمس الأرض ، حتى وثب منها (هيجز) ، وبدا لحظة وكأنما سيطلق ساقيه للرياح فرارا ، إلا ان كرامته — على الأرجح — قد منعته من ذلك ، فقد توقفت بغتة ، وعقد ساعديه امام صدره ، بعد أن أرخى قبعته على وجهه ، ووقف ينتظر هجوم الأسود فى بسالة ..

ورفع (الفنج) باب مغارة الأسود ، التى هبت لالتهام فريستها ..

وفجأة انهالت عليها رصاصاتنا ..

وأصيبت الأسود بالذهول ، فتراجعت فى ذعر ، فى حين قفز (جافيت) إلى حيث الأستاذ ، وجذبه

وفجأة انهالت عليها رصاصاتنا ..
وأصيبت الأسود بالذهول ، فتراجعت فى ذعر ..

إلى حيث السلم ، فأفاق (الفنج) من ذهولهم ، وانطلقوا يعدون خلفه ، وقد جن جنونهم لضباع قربان الآلهة ، ولكن رصاصات بنادقنا أعادت إليهم صوابهم ، وجعلتهم يختبئون كالفئران المذعورة ، حتى عاد إلينا الأستاذ ، ونجونا جميعا فى ليلة عيد معبود (الفنج) ..

ويا لها من ليلة !!

* * *

٧ ـ مفاوضـة ..

على الرغم من فرحتنا باستعادة (هيجز) ، ظل قلبى يحمل الكثير من الحزن ؛ لأننا لم نستعد ولدى (رودريك) ، الذى ظل أسيرا لدى (الفنج) ، ولقد جلس (هيجز) بيننا أشعث الشعر ، مهلهل الثياب ، وأخـرج غليونه ، الذى ما زال كمنظـاره سليما صالحا ، على الرغم مما مر به من أهـوال ، وراح يحشو الغليون ببعض ما أعرته إياه من تبغ ، وراحت (مجيدة) تتطلع إليه فى دهشة وحيرة ، وكأنهـا لا تصدق أن هذا الرث صديق لنا ، فى حين سألنى هو مبهورا :

ـ من هذه الحسناء الفاتنة ؟

أخبرته أنها الملكة ، فوقف احتراما ، وهم بخلع قبعته على نحو غريزى ، ثم لم يلبث أن انتبه إلى أنه قد فقدها فى معمعته ، فراح يتحدث معها بلغة عربية فصحى أدهشتها وأثارت إعجابها ، فرفعت حاجبيها الجميلتين ، وغمغمت :

ـ تهنئاتى بنجاتك أيها الغريب ، لا ريب أنها كانت تجربة شاقة .

هز رأسه مؤمنا ، وقال :

ـ شاقة للغـــاية ، وانا عاجز فى الواقع عن الشكر والاعتراف بجميل هؤلاء الأصدقاء .

والتفت إلى مستطردا :

ـ واطمئن بالنسبة لولدك يا (آدمز) ، فهو فى خير حـــال ، ولقـــد أصـــبحنا صديقين حميمين ، وسيتزوج ابنة الســـلطان (بارونج) .. وهـــذا السلطان طيب القلب ، كريم النفس ، ولقد اعترض كثيرا على إلقائى للأسود ، ولكنه عجز عن مواجهة سطوة كهنة المعبود ، ولقـــد سمح لى بدراســـة شعائرهم الدينية ، و ...

قاطعته فى لهفة :

ـ وماذا قال ولدى ؟

أجابنى فى بساطة :

ـ لقد اســـعده كثيرا ان يعلم انك تسعى إلى استعادته ، وآلمه أن تلقى كل الهوان والعذاب فى سبيل هذا ، وهو شاب وسيم جميل ، ما زال يجيد الإنجليزية ، وإن غلبت عليها لهجة (الفنج) ، وهو الآن رئيس مرتلى اناشيد المعبد ، وسيتزوج ابنة السلطان قبيل اكتمال القمر فى الشهر القادم بليلة

واحدة ، وستقام الاحتفالات فى (هرمق) ، وكنت أتمنى حضورها ، و ...

قاطعته مرة أخرى :

ـ وهل يحب هو ابنة سلطان (الفنج) هذه ؟

هز رأسه ، مجيبا :

ـ إنه لم يرها فى حياته كلها ، ولكنه سمع عن جمالها وبساطتها ، ولعل أبسط مزايا هذا الزواج ، أنه سيضمن عدم إلقائه إلى الأسود .

اكتفيت منه بهذا القول ، الذى جعلنى أنام ليلتى قرير العين ، حتى أيقظنى (هيجز) فى الصباح ، وهو يقول :

ـ انهض أيها الكسول ، وحدثنى بكل ما لديك عن زهرة (المور) .. ألا ترى معى أن لعينيها سحرا عجيبا ؟

جلست على فراشى قائلا :

ـ دع مشكلة سحر عينيها هذه لكابتن (أورم) ، فهو يحبها .

هتف :

ـ يحبها ؟!.. إننى أمنحه كل الحق فى هذا ، فلو أننى فى مثل عمره ، لغرقت فى عشقها حتى أذنى .

قلت فى قلق :

ـ اخشى ما اخشاه انهـا قـد وقعت فى حبـه بدورها ، وقد يعرضهما هذا للقتل ، فهـو يخالف قواعد (الأباتى) وعقيدتهم .

هز رأسه متفهما ، وقال :

ـ يبدو انك على حق .. سأتحدث إليه فى الامر جديا ، فانا فى مثل عمر والده تقريبا .

قلت فى انفعال :

ـ فليكن ، ولكن حذار ان تنتبه (مجيدة) إلى هذا .. حذار ..

* * *

دعتنا الملكة إلى مجلسها الكبير مرة اخرى هذا العصر ، ولم نكد نذلف ، حتى فتحت ابواب ضخمة فى نهاية القاعة ، وتقـدم عبرها ثلاثة رسل من (الفنج) ، تدلت لحـاهم البيض على ملابسـهم الناصعة ، وهم ينحنون فى أدب جم أمام (مجيدة) ، التى اسدلت نقابها على وجههـا ، دون ان يعيروا (جوشيا) او الكهنة اية عناية او اهتمام ، ورفعت (مجيدة) كفها ، قائلة :

ـ تكلموا .

تقدم أحدهم خطوة ، وقال :

ـ أيا سليلة الملوك وزهـرة (المور) .. إننى أحمل إليك رسالة شـفهية من سـلطاننا العظيم (بارونج) .

قالت فى هدوء :

ـ هات ما لديك .

اعتدل وقال مرددا كلمات سلطانه :

ـ يا « أم النجاشى » .. لقد استعنت بالغرباء لإلحاق الأذى بمعبودنا (هرمق) ، وأنـا خادمه ، ولقد قتلوا بعض جنودى ، وانتزعوا من المعبـود قربانه وضحيته ، وقتلوا بعض اسودنا المقدسة ، وعـددا من كهنـة (هرمق) ، كما أبلغنى بعض جواسيسى انك تضمرين شرا لمعبودنا ؛ لذا فأنـا أبلغك أننى سأبيد (الأباتى) عن آخرهم ، بعـد هذه الأفعال ، وبعد أن أبقيت عليهم طويلا ، ولقد أجلت زواج ابنتى من (مطـرب مصر) بسـبب أحزانى لمـا حدث ، ولن يذهب حزنى ، وتتـزوج ابنتى ، ويرتد حسامى إلى جرابه ، إلا بعد أن أثأر لمعبودى ، ولا أبقى على أثر لـ (الأباتى) ، ولتعلمى أن المعبود (هرمق) قد تنبأ بعد مصرع وحوشه ، وعلى لسان كهنته ، أن رأسى سيرقد على سـهول

(المور) ، قبل موسم الحصاد ، وهذا يعنى أننى أو من يخلفنى سينام على أرض (المـور) قبيل أن يأتى الحصاد ، وأمامك الآن أحـد خيارين ، إما أن تخضعى لى ، فيسلم (الأباتى) جميعا ، فيما عدا (جوشيا) ، وعشرة آخرين ؛ لأنه حاول اغتيـالى بأسـلوب لا يتفق مـع الشرف ، ولأن الآخـرين لا يستحقون الموت بالسيف ، أو أن تقاومى ، فلا يسعنى إلا أن اقتل كل رجالك ، عدا الغرباء ، وعدا (جافيت) ، الذى استحق احترامى وتقديرى ، لما أثبته من جرأته ، واستهانته بالموت ، وفى الحالة الأخيرة ستسبى كل نساء (الأباتى) ، فيمـا عدا (أم النجاشى) ، ذات القلب الكبير » .

انتهى الرسول من تلاوة الرسـالة الشفهية ، وصمت ينتظر الجواب ، فأدارت (مجيدة) عينيها فى وجوه مجلسها ، ورأت الرعب المرتسم عليهـا ، فقالت :

— ما رأيكم يا رجال مجلسى الموقر ؟.. لست أحب أن انفرد بجواب يعنى مصير شعب بأكمله .. ما رأيك يا عمى (جوشـيا) .. أتقبل أن تضحى برأسك ورءوس عشرة من القادة ، فى سبيل السلام بيننا وبين (الفنج) ؟

هتف (جوشيا) مستنكرا :

— أتقترح ملكة البلاد أن يشنق عمها ، والأمير الأول لبلادها ؟.. هل توقع العشرة الآخرون أن يسمعوا هذا القول ، من شفتى مليكتهم ؟

أجابته فى هدوء :

— لست أقترح شيئا يا عماه ، وإنما اسالك رأيك فيما يعوضه سلطان (الفنج) .

صاح فى غضب :

— أجيبيـــه عنى وعن العشرة الآخرين ، وعن كل (اباتى) ، أننـــا نرفض هذا العرض ، وأننـــا ســـنقاتل (الفنج) ، ونبيدهم ، ونهـــدم معبودهم ومعبدهم على رءوسهم ، لنمهد بأحجاره طرقنا ونبنى معابدنا .. هل تسمعون يا رسل (الفنج) ؟

تطلعوا إليه فى استهتار وازدراء ، وقال كبيرهم :

— نعم .. نسمع ، ويسرنـــا أن نسمع هـــذا القرار ، فشعبنا يحب الحروب ، ويفضـــل حسم خلافاته مع الآخرين بحد السيف ، ولكن عليك أنت أن تعجل بالموت ، قبل أن نحتل (المور) ، فالمشنقة ليست وسيلة الموت الوحيدة عندنا كما تعلم .

شحب وجهه وهم ينحنـــون للملكة ، ويغادرون المكان ، وصاح غاضبا :

— هل ستسمحون لهم بالانصراف ؟.. لابد أن نقتلهم بعد أن هددوا واهانوا امير بلادكم .

ولكن أحدا لم يرفع يده إلى رســـل (الفنج) ، الذين غادروا المكان حاملين القرار ..

قرار الحرب ..

* * *

٨ ـ القـرار ..

لم يكد رسـل (الفنج) يغادرون المكان ، حتى ساده صمت ثقيل رهيب ، تحطم فجأة بجلبة أحدثها حديث رجال (الأبـاتى) المختلط ، حيث راحـوا يتحدثون جميعا فى آن واحد ، دون أن يصغى أحدهم إلى ما يقوله جاره ، إلى أن برز الكاهن من وسط الجموع ، وهتف يدعـو الجميع للصمت ، ثم راح يعلن أننا نحن سبب ما أصاب (الأبـاتى) ، الذين عاشوا عمرهم كله فى سـلام ، حتى لدغنـا نحن جيراننا (الفنج) ، واشـعلنا نيران الغضـب فى نفوسهم ، فثـاروا وهاجموا وماجـوا ، وقرروا القضاء على (الأباتى) بلا رحمة ..

وفى نهاية خطبته الحماسية الغاضبة ، اقترح ترحيلنا من (المور) ، حتى يستتب الهدوء من جديد ، وعندئذ شاهدت (جوشيا) يهمس بأمر ما فى أذن أحد أتباعه ، الذى لم يلبث أن صاح :

ـ لا .. لو أننا طردناهم ، فسيهرعون إلى (بارونج) ، سـلطان (الفنج) ، بعـد أن سبروا أغوارنا ، وكشفوا أسرارنـا ، وصار بمقدورهم استغلالها ضدنا .. يجب أن نعدمهم على الفور .

ثم جرد حسامه فى زهو ، فقفز إليه الجاويش ، وضرب رأســـه بكعب مسدسه ، وهو يقـــول فى صرامة :

ـ أعد سيفك إلى غمده أيها الوغد .

ولدهشتنا أطاعه الرجل فى خـــوف ، فاندفعت الملكة تقول فى انفعال :

ـ يا للعار !.. يا للخسة والنذالة !.. هؤلاء ضيوفى ، تركوا أوطانهم وذويهم ، وهبوا لمساعدتنا وخدمتنا ، فهل نكافئهم على هـــذا بالقتل ؟!.. ثم ما الذى يجديه هذا ؟.. إن الحل الوحيد لنجاتنا من هذا الموقف ، هو أن نهدم معبد (الفنج) ومعبودهم على رءوسهم .. ولتعلموا أن سلطان (الفنج) ، على الرغم من عدائه لنا ، رجل شريف ، يحتـــرم الشجاعة والشجعان ، وستتضاعف نقمته علينا ، لو قتلنا من يحمل لهم كل الاحتـــرام ، ولن يطفىء غضبته ـ حينذاك ـ إلا القضاء على شعبنا كله ، ولو وافقتم على اقتراح قتل الغرباء ، فسأتنازل عن عرشى ، ولتنتخبوا ملكة غيرى .

صاح أحد رجالها فى جزع :

ـ هذا مستحيل !!.. أنت آخـــر الســـلالة النبيلة .

قالت فى حزم :

ـ اختاروا واحدة من دم غير نبيل ، او انتخبوا ملكا يوافق على ذبـــح الضـــيوف ، وإهدار شرف (الأباتى) وكرامتهم ، واحتمال هذا العار إلى ابد الآبدين .

دفعت كلماتهـــا الخـــوف إلى نفوس اعضـــاء مجلسها ، فسألها احدهم فى قلق :

ـ ما حل المشكلة فى رأيك إذن يا (أم النجاشى) ؟

رفعت نقابها ، والقته على راسها ، وهى تقول فى صرامة :

ـ الحل الوحيد هو أن تؤلفوا جيشا جرارا ، ينضم إليه كل قادر على حمل السلاح ، وليساعدكم الغرباء ، ويقودكم إلى النصر ، وإلا فلتقبلوا بالذبح ، وبأن تروا نساءكم سبايا ، وأن يمحى اسمكم من سجل الشعوب .

صاح احدهم ، وقد ملكه الحماس :

ـ كلا .. كلا .

هتفت بحماس اكبر :

ـ انقذوا انفسكم إذن ، فما زال عددكم كبيرا ..

تزودوا بالشجاعة مرة واحدة ، وستجدون انكم قادرون على احتلال (هرمق) نفسها قبل الحصاد .

ثم نهضت ، وغادرت المجلس فى عظمة ووقار ..

وتركت القرار الأخير لشعبها ..

* * *

انتهى قرار (الأباتى) إلى أن نبقى على رأس جيشهم ، وأن يطيعوا أوامرنا الحربية ، على أن يكون لهم مجلس من القادة معنا ، له رأى استشارى فحسب ، وقد أنساهم رعبهم من القتال كوننا غرباء ، لا ننتمى إلى وطنهم بصلة ..

وبدأت مهمة تكوين الجيش ..

وكانت أشق مهمة بذلناها فى عمرنا كله ..

لقد كان (الأباتى) قوما زراعيين ، لا يمتون للحرب والقتال بأية صلة ، ولقد اعتبروا جمعنا للجيش أمرا رهيبا ، فراحوا يرشقوننا بالحجارة من نوافذ منازلهم وأكواخهم ، ونحن نجمع الجيش ، حتى لم نستطع جمع أكثر من خمسة آلاف رجل بشق الأنفس ..

وكانت مهمة (كويك) الأساسية هى أن يعاون الكابتن طوال ست ساعات يوميا ، على شق

سرداب من نهاية مقبـــرة أجداد وملوك (الأباتى) ، وأسفل الصخرة الضخمة التى تفصله عن المعبود ، وحتى التمثال نفسه ..

وكانت مهمة شاقة بحق ..

بل هى مستحيلة ..

ثم تدخلت العناية الإلهية ، وعثرا فى أثناء حفر السرداب على نفق قديم، شديد الانحدار ، يوصلهما إلى هدفهما ، ولكن الزلازل القديمة كانت قد ردمت جزءا منه ، وكان عليهمـــا رفع الصـــخور ، إلا أن الكابتن قال للملكة :

ـــ أخشى ما أخشاه ألا يؤدى بنا هـــذا إلا إلى مغارة الأسود ، ثم إنه سيحتاج إلى ما يقـــرب من ستة أسابيع لرفع الصـــخور والأنقاض ، فى حين أننى لا أميل إلى فكرة هدم المعبد والمعبود هـــذه ، فهما جزء من جبل شاهق شامخ ، وأشك فى أن تنجح متفجراتنا فى نسفه ، والرأى عندى أن نجمع جيشا من (الأباتى) ، ونهاجم مدينة (هرمق) فى أثنـــاء احتفالات عيد الحصاد ، فلو أمكننا هدم أسوارها وأبوابها فسنستطيع مهاجمة المعبود ، وهدم المعبد من الداخل .

استمعت إليه (مجيدة) فى اهتمام ، وصمتت طويلا مفكرة ، ثم هزت راسها ، وقالت :

— سأستشير مجلسى ووزرائى .

قضيت ليلتها تستشير قادتها ، ثم أتت تقول فى سخرية مريرة :

— يقول اعضاء مجلسى الموقر إنها فكرة طائشة ، ولا سبيل لتحقيقها ؛ لأن (الأباتى) لا يلقون بأنفسهم فى التهلكة عبثا ، ثم إنهم يرون أن هدم المعبد والمعبود هو الوسيلة الوحيدة لإنهاء صراعنا مع (الفنج) ؛ ولذلك فهم يأمرونكم بهدم المعبود والمعبد .

تطلعنا إليها فى دهشة لعبارتها الأخيرة ، فأضافت فى مرارة :

— نعم .. إنهم يأمرونكم ولا يرجونكم ؛ لأنهم يعتبرونكم فى خدمتهم لمدة عام كامل ، كما أقسمتم ، وفى هذه الحالة يتحتم عليكم طاعة أوامرهم ، فهذا ما ستنالون عليه أجركم .

بدا الغضب على وجه الكابتن ، فاستدركت فى سرعة :

— هذا ما قرره المجلس ، وما اعلنه نيابة عنهم الأمير (جوشيا) .

احتقن وجه (أورم) ، وقال :

ـ وهل هذا رأيك أيضا يا سليلة الملوك ؟

تنهدت وقالت :

ـ ليس أمامى سوى هذا ، ما دام (الأباتى) يرفضون القتال .

ران الصمت لحظة ، ثم قال الكابتن :

ـ لا بأس يا زهرة (المور) .. سنبذل قصارى جهدنا ، ولكن لا تلوموا إلا أنفسكم ؛ لو انتهى الأمر على خلاف ما تحبون ، فالنبوءات سلاح ذو حدين ، ولست أتصور شعبا مقاتلا كـ (الفنج) يغادر بلاده هكذا ، بعد هدم معبـــده ومعبـــوده ، مهما قالت نبوءاته ، دون أن يهدم بلادكم فوق رءوســـكم .. ولكن ليكن ما شاء مستشاروك الشجعان .

صمت لحظة ، وكأنما يدرس الأمر ، ثم أضاف فى حزم :

ـ أريد مائتين وخمسين من متسلقى الجبال ، تحت قيادة (جافيت) ، الذى عليه اختيارهم بنفسه ، وسأتولى مع الجاويش (كويك) أمر المتفجرات ، ومد الأسلاك فى السرداب .

أجابته :

ـ ستحصل على ما تريد .

لم نكد ننصرف من مجلسها ، حتى سمعنا (جوشيا) يقول :

— لقد ظهر الغرباء على حقيقتهم .

استدار إليه الكابتن فى حركة حادة عنيفة ، جعلته يتراجع مذعورا ، فى حين صاح الكابتن :

— حذار أن ينتهى الأمر إلى أن تظهر أنت على حقيقتك يا (جوشيا) ، فهى أقل مما تتصور بكثير .

لم ينبس (جوشيا) بحرف واحد ، ولم يجرؤ حتى على الاعتراض ، وإنما انسحب وهو يهمهم بعبارات غاضبة مبهمة ..

وعدنا نحن إلى العمل المتصل ..

كان الكابتن والجاويش يتناوبان العمل ليلا ونهارا فى السرداب ، وكلبنا (فرعون) الصق بالكابتن من ظله ، فى رواحه وغدوه ..

ثم حدث ما كنت أخشاه ..

وكادت تقع المأساة ..

كان ذلك ذات ليلة ، خرج فيها الكابتن يلتمس بعض الراحة ، من عناء العمل فى السرداب ، وعهد إلى الأستاذ بالإشراف على العمال بدلا منه ، حتى يأتى الجاويش (كويك) لتسلم نوبتجيته ، وكنت أنا

مشغولا بإحباط عصيان بعض صغار الملاك من الجنود ، الذين فروا من الجندية إلى حقولهم ، لبيع محصولاتهم ، وبعد أن انتهت الملكة من معاقبتهم سارت معى الهوينى ، حتى التقينا بالكابتن ، فأمرت حراسها بالعودة إلى القصر ، وسارت جنبا إلى جنب مع (أورم) ، حتى اختفيا فى أحد الأركان ..

وجلست انتظرهما فى بقعة بعيدة ، وقد شرد فكرى فى ولدى الأسير الحبيس ، حتى تناهى إلى مسامعى وقع أقدام متسللة حذره ، فأشعلت عودا من أعواد الثقاب ، ليسقط الضوء على وجه أحد خدم الأمير (جوشيا) :

ووجدت نفسى أرتجف ..

وأتساءل : أكان ذلك الخادم فى طريقه إلى حيث (أورم) و (مجيدة) ، أم كان عائدا من هناك ؟!

وبكل توتري صحت به :

ـ من أنت ؟.. وماذا تفعل هنا ؟

هتف فى انزعاج :

ـ الطبيب ؟!

انطفأ عود الثقاب فى تلك اللحظة ، ولم أكد أشعل آخر ، حتى كان الخادم قد اختفى ، وكأنما انشقت الأرض وابتلعته ..

ولم أخبر الكابتن أو الملكة بما حدث إلا أننى لم أستطع كتمان مخاوفى عن (هيجز) ، الذى عقد حاجبيه طويلا مفكرا ، ثم قال :

ـ أغلب ظنى أنهم سيحاولون قتل الكابتن ، ومن الضرورى أن نحذره من النوم بمفرده .

كان هذا فى المساء ، ولم تكد تشرق شمس الصباح التالى ، حتى طرق (كويك) باب حجرتنا ، وهو يقول فى انزعاج واضح :

ـ الكابتن يريد رؤيتكما .

سأله (هيجز) ، ونحن نرتدى ثيابنا على عجل :

ـ ماذا حدث ؟

أجابه (كويك) فى اقتضاب :

ـ ستريان بنفسيكما .

قطعنا شوطا طويلا فى السرداب المظلم ، حتى

بلغنا أطلال معبد قديم ، ورأينا على ضوء المصباح الذى أحمله شـــبح الكابتن ، وهو يحمل مصباحا آخر ، وإلى جواره جلس (فرعون) يهز ذيله مرحبا بنـــا ، وتمتم الكابتن فى خفوت :

ـ اتبعانى .. ساريكما شيئا .

قادنا إلى حجرة جانبية ، أقام فيهـــا فراشه ، وأشار إلى شىء مجاور للفراش ، قائلا :

ـ انظروا .

بدت لنا جثـــة رجل قتيل ، وإلى جوارها خنجر ضخم ملوث بالدماء وتعرفنا على الفور ذلك القتيل ، وهتفنا فى صوت واحد :

ـ (القط) ؟!

قال الكابتن فى حزم :

ـ لقد تســـلل ليقتلنى ، ولكن (فرعون) انتبه إليه ، وأيقظنى نباحه ، فنجوت من الموت بأعجوبة ، واشتبكت مع (القط) ، واضطررت لقتله .

غمغم (هيجز) :

ـ لقد نال جزاءه ..

بدت لنا جثة رجل قتيل ، وإلى جوارها خنجر ضخم ملوث بالدماء
وتعرفنا على الفور ذلك القتيل ..

ولم يكد الخبر يتنـــاهى إلى (مجيـــدة) ، حتى هرعت إلينـــا جزعة مذعورة ، وتبعها (جوشيا) متظاهرا بالجزع والتعاطف ، وإن لم ينس أن يرمق (فرعون) بنظرة قاسية ناقمة ..

ولم يكتف بالنظرة للأسف ، ففى مســـاء اليـــوم نفسه مات (فرعون) ..

مات مسموما ..

* * *

٩ ـ الخيـانة ..

منذ ذلك الحادث احاطتنا الملكة بنخبة مختارة من حراسها الأوفياء ، وبرعاية فائقة ، حتى اننا لم نكن نخطو خطـوة واحـدة من دون الحراس ، وحتى طعامنا وشرابنا لم نكن نتناولهما قبل ان يتذوقهما شخص مسـئول ، حتى لا يكون مصيرنا كمصير (فرعون) المسكين ..

وكان اكثرنا ضيقا وتبرما بتلك الحراسة المكثفة هى الملكة نفسها ، وكذلك الكابتن ، فعلى الرغم من ان الحراسـة تكفل الا تقطع رقابنا فى اثنـاء النوم ، والا نقضى نحبنا بالسم ، إلا انها فى الوقت نفسه تضع قيودا يصعب تجاوزها ، بالنسبة للقاء العاشقين ..

ولكن هـذا لم يمنع من حدوث بعض الحوادث الغامضة المثيرة للشك ..

فعندما كنا نجلس ـ ذات مرة ـ عند سطح التل ، هوت فوقنا صخرة ضخمة ، كادت تسحقنا سحقا ، لولا ان ارتطمت بنتوء صغير فى هبوطها ، فانحرف مسارها ، ونجونا باعجوبة ..

ومرت أخرى ، سقطت علينا بعض الرماح ، ونحن نجول فى الغابات ، ولقى جواد (هيجز) مصرعه ، إلا أننا لم نجد أثرا لمخلوق واحد فى الأدغال كلها ..

وذات يوم ، هرع راعيا غنم إلى القصر الملكى ، وقالا إنهما كانا يرعيان بعض الأغنام ، بالقرب من الصخور الغربية ، على مسيرة عدة كيلومترات ، عندما فاجأهما خمسة عشر من جنود (الفنج) ، وأحكموا وثاقهما ، وقالوا لهما فى سخرية :

— أبلغا المجلس والملكة والغرباء انه من الأفضل أن يسرعوا بتدمير معبودنا ، قبل أن تتحقق النبوءة ، ويتم سحق (الأباتى) ، وسبى نسائهم ، واحتلال (المور) .

ثم تركوهما موثقين ، حتى حل رعاة الأغنام الآخرون وثاقهما ، فأسرعوا إلى القصر لإبلاغ الرسالة ..

وهرع فريق من الجيش إلى تلك البقعة ، يتفقد المكان ، ويبحث عن أى أثر تركه (الفنج) خلفهم ، ولكن دون أن يسفر هذا عن شىء ..

وتفجر عندئذ سؤال جديد ..

أى طـــريق ســـلكه جنود (الفنج) إلى أرض (المور) ، ليبلغوا رسالة سلطانهم ؟!

والمؤسف أن الأمطار قد هطلت بعد هذا الحادث، ومحت اية آثار اقدام ، قد يكون الأعداء قد خلفوها وراءهم ..

ولم يعد أمامنا سوى افتراض واحد ..

أن (الفنج) قد كشفوا طريقا خفيا بين (هرمق) و (المور) ، وانه ســـيكون وسيلتهم للتسلل إلى البلاد وغزوها مستقبلا ..

وتضاعف الفـــزع فى النفوس ، مع انتشـــار القصة وانتقالها من فم إلى فم ، وبدا الأمر اشـــبه بامة حديثة ، تخشى أن يهبط عليهـــا العدو بغتـــة بالمظلات ، ويحتل أرضها ، وهى فى سبات عميق ..

وبسرعة تبخرت الثقة بالنفس ، وانهار الزهو باسوار (المور) الصخرية ، وانقلب الحديث إلى وصف جيوش (الفنج) المدربة ، ولم يلبث الرعب أن ملأ النفوس ، وارتفعت بعض الأصوات تطالب بمحاكمة مستشارى الملكة ، الذين ساقوا البـــلاد إلى هذه الحالة من الضعف ، بسياسة الســـلام الهزيلة ، والعزوف عن الحروب ..

وأفل نجم (جوشيا) كثيرا ..

وبقـدر ما هبط نجم (جوشيا) ، ارتفع نجم (مجيدة) ، التى طالمـا نادت بضرورة تكوين جيش قوى مدرب ..

ولم يعد أمام شعب (الأباتى) المسكين سوى أن يتضرع إلى إلهه طالبا الرحمة ، وسـائلا إيـاه أن يمنحهم القوة على مواجهة أعدائهم ..

وأصبحنا نحن أمل (الأباتى) الوحيد فى النصر ، وتضاعف احترامهم لنا مـرات ومرات ، حتى أن (جوشيا) نفسه صار ينحنى لنا كلما لقينا ، وصار الحفاظ على حياتنا هو الشغل الشاغل للجميع ، فانقطعت المؤامرات والدسائس ، أيا كان مصدرها ، وواصلنا نحن العمل ..

وأخيرا انتهينا من العمل الشاق ، وتم إعداد كل شىء للقتال ، واتفقنا على إشعال فتيل الحرب ليلة اكتمال البدر ، وهى الليلة التى أبلغنا جواسيسنا بأن السلطان سيقيم فيها حفل زواج ابنى وابنته فى (هرمق) ، وأنه قد استعد لبدء الهجوم على (المور) ، فور انتهاء مراسم حفل الزفاف ..

وفى ذلك اليوم أعددنا كل شىء ، فيمـا عدا سد الممر الذى يصل ما بين مغارة مقابر ملوك (الأباتى) ،

وتمثال إله (الفنج) ، وكان الكابتن قد مد فيه كل أسلاك المتفجرات ، وجعل نهاية الأسلاك جميعها فى حجرته ، حيث يضع فراشه ، وحيث لقى (القط) مصرعه ، وأقام حراسة مشـــددة على الحجرة ، خشية حدوث أية خيانات ..

وفى الرابعة تقريبا أتم العمال عملهم فى الممر ، وفجأة ظهـــر (جافيت) بادى الاضطراب ، وبلغ موقعنا حول البطاريات الكهربية وهو يلهث ، فهتف به الكابتن فى قلق :

ـــ ماذا حدث ؟.. هـــل كشـــف (الفنج) أمر الأسلاك وقطعوها ؟

أجابه (جافيت) فى انفعال :

ـــ بل حدث ما هو أسوأ يا سيدى .. إن الأمير (جوشيا) يعد خطة لاختطاف زهرة (المور) وسليلة الملوك .

صعقنا الخبر ، وهتف الكابتن غاضبا :

ـــ ماذا تقول يا رجل ؟.. قص علينا الأمر كله .

التقط (جافيت) أنفاسه ، وهو يقول :

ـــ إن لى صديقا وقريبا ـــ ولن أبوح باسمه ـــ يعمل فى خدمة الأمير ، ولقد شربنا معا اليوم بضعة

اقداح من الخمر ، حلت عقدة لسانه ، فإذا به يخبرنى مزهوا بوجود مؤامرة لاختطاف الملكة .

أمسكه (أورم) من كتفيه ، وصاح به فى قوة :

ـ متى وكيف ؟

هز (جافيت) راسه فى انفعال ، وقال :

ـ لست أدرى ، هذا كل ما امكننى معرفته .

سألته فى حيرة :

ـ ولكن ما الذى يدعوه لاختطافها ؟

أجاب (جافيت) :

ـ ليصبح اكبر رجل فى (المور) .

ران علينا صمت ثقيل ، صنعته دهشتنا واستنكارنا لما سمعناه ، وسأل الكابتن (جافيت) فى انفعال :

ـ الم تعلم متى يتم ذلك تقريبا ؟

تردد (جافيت) لحظة ، ثم أجاب :

ـ بعد خمسة أيام تقريبا .

تنهد الكابتن فى ارتياح ، وقال :

ـ يوم السبت بعيد والحمد لله .

ثم سأله مرة أخرى فى اهتمام :

ـ قل لى يا (جافيت) : هل صديقك هذا صادق دوما ؟

هز (جافيت) رأسه نفيا ، وقال :

— إنه يكذب أحيانـــا ، ولكننى رأيت ضرورة إخباركم بما سمعت .

ربت الكابتن على كتفه ، وقال :

— حسنا فعلت .

انصرف (جافيت) وتوتره يلازمه ، فى حين التفت إلينا (اورم) ، وسألنا :

— ما رأيكم ؟

أجابه (هيجز) فى ضجر :

— إنهـــا بعض الشائعات ، التى تنتشر فى كل مكان .

قلت بدورى :

— أوافقك على هذا يا هيجز ، فلو أن صديق (جافيت) يعلم شيئا ، لما أكتفى بهذا القول المبهم ، ونصيحتى ألا تذكروا الأمر لـ (مجيدة) ، حتى لا نثير قلقها بلا طائل .

هز الكابتن رأسه متفهما ، ثم التفت إلى (كويك) يسأله :

أجابه (كويك) بلا تردد :

— لست أوافقهمـــا إلا فى ضرورة عدم إزعـــاج سليلة الملوك بذكر الأمر ، ولكننى أثق فى أن (جافيت)

رجل أمين ، وغريزته تؤكد له أن شيئا ما يحاك ضد مليكته .

سأله الكابتن فى اهتمام :

ـ ماذا تقترح إذن ، لو أن هذا صحيح ؟

أمسك الجاويش عصا قصيرة ، وراح يخط بها بعض الخطوط على أرض الحجرة ، وهو يقول :

ـ هذا رسم تخطيطى لحجرة الملكة الخاصة ، هنا حجرتها ، وهنا مخدع الوصيفات والخادمات ، ثم جدار مرتفع ، يعقبه خندق عميق ، ولكن هناك ممر بعرض مترين ، يصل ما بين حجـرة الحارس ومخدع الوصيفات ، والرأى عندى أن نقضى ليلنا أنا والأستاذ فى حجرة الحارس ، منذ هذه الليلة ، خشية أن يتم اختطافها قبل الأوان .

درس الكابتن الأمر لحظات فى صمت ، ثم قال فى حزم :

ـ فليكن ، ولكن ما رأى الأستاذ (هيجز) ؟

قال (هيجز) :

ـ اقتراح الجاويش رائع بحق .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ معذرة لخروجى عن النقاش ، ولكننى أحب

أن أصعد إلى الصخرة ، لأرقب ما يحدث ، عندما تنشب المعركة .

هز الكابتن كتفيه ، وقال :

— لن ترى سوى وميض والتماعات فى السماء .. والأفضل أن تصحب الجاويش إلى حجرة الحارس ، وتصطحبان معكما هاتف ميدان ، حتى يمكنكما الاتصال بنا ، وإبلاغنا بما يحدث أولا فأولا .

ضرب الجاويش كعبيه بعضهما ببعض ، وقال :

— أية أوامر أخرى يا سيدى ؟

قال الكابتن :

— لا يا (كويك) .. انت تعلم اننى سأشعل اللغم فى تمام العاشرة ، فلقد أبلغنا جواسيسنا أن حفل الزفاف سيقام بعد ظهور البدر بثلاث ساعات كاملة .

أيد (هيجز) حديثه ، قائلا :

— هذا صحيح .. لقد سمعتهم يؤكدون هذا ، وأنا فى سجنى .

قال (أورم) :

— لهذا السبب لن أشعل اللغم قبل العاشرة ، مهما كانت الأسباب ، حتى لا يصاب (رودريك) بأى

ضرر ، وعليكما ان تتصلا بى وبالطبيب فى التاسعة والنصف .

تبادلنا التحية ، وصحبت انا (هيجز) و (كويك) إلى حجرة الحارس ، وسالنى (كويك) هامسا :

ـ أتؤمن بالحاسة السادسة ايها الطبيب ؟

اجبته وانا فى حيرة من سؤاله :

ـ بالطبع .. لماذا تسال ؟

ابتسم ابتسامة حزينة وقال :

ـ شىء ما فى أعماقى ينبئنى اننى لن اراكم مرة اخرى بعد هذه الليلة ، وان نهايتى قد حانت .

حاولت تهدئته ، قائلا :

ـ إنه بعض القلق يا (كويك) ، و ...

قاطعنى فى هدوء :

ـ عدنى ، لو تحققت مخاوفى ، ان تعنوا بابناء اخى الراحل ، وان تخبروهم أن عمهم (صمويل كويك) قد قام بواجبه حتى النهاية .

شعرت فى أعماقى بأن مخاوفه على حق ، حتى

أن صوتى قد ارتجف ارتجافة خفية ، وانا أقول فى حزم :

ـ اعدك يا (كويك) .

لم ينتبه (هيجز) إلى حديثنا ، فقد كان مشغولا بالتطلع إلى معبود (الفنج) ، الذى سيهوى قبل مطلع الفجر ..

أو نهوى نحن ..

من يدرى ؟!

* * *

١٠ ـ المعجـزة ..

عدت إلى الكابتن ، الذى بقى وحيدا فى حجرته الشـبيهة بالـكهف ، وتـركت (جافيت) يحرس الأسلاك ، ولم يكـد الكابتن يرانى حتى ابتدرنى قائلا :

ـ قلبى يحدثنى بأن (مجيدة) معرضـة لشر مستطير ، وأن قصة (جافيت) حقيقية ، ولقد رجتنى (مجيدة) ان تبقى الليلة فى رفقتنا ، ولكننى رفضت ، خشية ان يصيبنا مكروه عند انفجار اللغم ، فتصاب معنا ، و ...

ارتفع رنين الهـاتف الميدانى فى تلك اللحظـة ، فاختطف الكابتن سماعته فى لهفة ، وهتف :

ـ ماذا حدث ؟

أجابه (هيجز) فى بساطة :

ـ لا شىء ، فقـط اردت ان اخبـركمـا اننى والجاويش فى حجرة الحارس ، ويبـدو أن القصر خـال تماما ، إلا من ذلك الحارس ، فلقد خـرج الجميع لرؤية الألعاب النارية ، حتى الوصيفات ،

ولقد حاول الحارس منعنا من البقاء فى حجرته ، بحجة ان هذا يتعارض مع أوامر الأمير (جوشيا) ، بشأن عدم اقتراب الغرباء من سليلة الملوك ، ولكن (كويك) صفعه صفعة جعلته يعدو كالمدوغ ، صارخا ومهددا بإبلاغ الأمير ، و ....

قطع حديثه بغتة ، على نحو اقلقنا ، فهتف به (أورم) :

— ماذا حدث عندك ؟

أجابنا صوته بعد لحظات :

— زهرة (المور) هنا ، وتريد أن تتحدث إلى الكابتن بنفسها .

انسحبت فى صمت ، لأترك لهما لحظات ، ينعمان فيها بمناجاة الحب والعشق ، ليبدد كل منهما توتره ومخاوفه ، وجلست خارج الحجرة صـــامتا ، حتى فوجئت بـ (جافيت) يهرع إلى ، وقد أخذ الرعب منه مأخذه ، فصحت به :

— ماذا أصابك ؟.. هل قطعت الأسلاك ؟

اجابنى وهو يلهث رعبا :

— لا ، وإنما رأيت شبح أحد ملوك (المور) فى الكهف .

أنهى (أورم) حديثه على الفور ، وتبادلنا أنـــا

وهو نظرة ذات مغزى ، ثم هب يسأل (جافيت) :

ـ هل قال شيئا ؟

أجابه (جافيت) وهو يرتعد :

ـ قال الكثير ، ولكننى لم افهم سوى القليل ، فهو يتحدث بسرعة ، وبلغة تختلف عن لغتى كثيرا ، ولكن اظنه سألنى كيف يجرؤ قومى على هدم معبوده ، فاجبته بأننى مجرد خادم مطيع ، وهنا قال بأن (هرمق) سيأتى إلى (المور) ، ويصفى حسابه مع (الأباتى) والغرباء .

تبادلنا نظرة أخرى ، وغمغم الكابتن :

ـ اظنها مجرد أوهام ومخاوف .

تطلعت إلى ساعتى ، وقلت فى توتر :

ـ ليس لدينا وقت للتحقق منها ، فقد بقيت دقائق ثلاث فحسب على العاشرة .

اتخذ كل منا مجلسه فى سرعة ، ونسينا او تناسينا امر ذلك الشبح ، وراحت الثوانى تمضى بنا كالدهور ، حتى صاح الكابتن :

ـ اربع ثوان .. ثلاث .. اثنتين .. واحدة .

ثم ضغط زر التفجر ..

وانفتحت ابواب الجحيم على مصراعيها ..

* * *

كان ارتجاجا لم اعهد مثله من قبل ، القانا أرضا فى عنف ، ورأينا صخرة كبيرة تهوى لتسد الباب أمامنا ، وسمعنا أخرى تسقط بالقرب منا ، فتدك الأرض دكا ، وانهالت الاتربة فى غزارة ، حتى هدأت الأمور ، فنهضت التقط سماعة الهاتف ..

وهنا تناهى إلى مسامعى دوى طلقات نارية ، عبر أسلاك الهاتف ، وسمعت صوت (هيجز) يهتف :

ـ حذار يا (كويك) .

وأعقبه صوت (كويك) يصيح :

ـ اطمئن .. لقد أطلقت النار عليه ، ولن يمكنه إطلاق سهم آخر .

وارتفع صوت (مجيدة) تهتف :

ـ أين الكابتن ؟.. أريد أن أتحدث إليه ..

ناولت السماعة إلى (أورم) فى سرعة ، وسمعتها تستطرد :

ـ تعال بسرعة يا (أورم) .. لقد هاجمنا رجال (جوشيا) .. أسرع قبل أن يفتكوا بنا ، وأن ..

وهنا انقطع الاتصال ، وأيقنا من أن أحدهم قد قطع أسلاك الهاتف ، فألقى (أورم) السماعة من يده ، وهتف :

ـ اللعنة !!.. يا للخسة والخيانة !!

ووثب إلى البـــاب كليث غاضب ، وحاول أن يزحزح تلك الصخرة التى تعترضه فى يأس ، ثم لم يلبث أن راح يدور فى الحجرة كالمجنون ، ويضرب الصخرة بكتفيه ، حتى صحت به :

ـ أتريد أن تقتل نفســـك ؟.. اهدأ واتركنى أفكر .

ولكنه لم يبال بحديثى ، وإنما هتف بـ (جافيت) :

ـ أحضر هذه المنضدة إلى هنا يا (جافيت) ، فهناك فراغ ضيق بين الصخرة والحـــافة العلوية للباب ، ولعلنى أستطيع عبوره .

نجحت فكرته بالفعل ، وأمكنه عبور تلك الفرجة ، وتبعته أنا و (جافيت) ، ورحنا نعدو نحن الثلاثة نحو القصر ، ولم نكد نجتاز ردهته حتى رأينا بقع الدماء على الأرض ، فصاح (أورم) فى هلع :

ـ أسرعوا .. أسرعوا .

عبرنا الممر الذى يوصـــل إلى مخـــدع سليلة الملوك ، ووجدنا أنفسنا نسير فوق جثث ودماء ،

ووثب إلى الباب كليث غاضب ، وحاول أن يزحزح تلك الصخرة
التي تعترضه في يأس ..

حتى بلغنا حجرة الحارس ، فانعقدت ألسنتنا من هول المشهد ..

كانت الحجرة مغطاة بجثث تسبح فى بحر من الدماء ، وكلهـا ترتدى الثيـاب الرسمية ، التى اختارها (جوشيا) لجنوده ، وعلى مقربة جلس (كويك) على مقعد ، وهناك سهم يخترق ظهره ، فى حين وقفت الملكة إلى جواره ، تدلك وجهه بقطعة من القماش المبتل ، وإلى جوارهما وقف (هيجز) والدماء تنزف من جراحه ، وخلفه ثلاث وصيفات يبكين وينتحبن ..

ولم يكد بصر (كويك) يقع علينا ، حتى ابتسم ابتسامة راضية ، على الرغم من الدماء التى تنزف من رأسه فى غزارة ، وأسلم الروح ..

وضم الكابتن (مجيدة) إليه ، وهتف فى ارتياع :

ـ ماذا حدث ؟

أجابه (هيجز) ، والحزن يثقل قلبه وصوته :

ـ سمعنا دوى الانفجار فى تمام العاشرة ، ولم نكد نهم بالخروج ؛ لرؤية ما حدث ، حتى قدم (جوشيا) ؛ ليعلن تدمير (هرمق) ، وطلب أن نرافقه سليلة الملوك إلى قصره ؛ لأسباب سياسية هامة ، وأصر

على ذلك إصرارا دفعنا إلى طرده ، ولم يكد يغادرنا حتى انهالت علينا السهام ، وانقض علينا جمع كبير ، ينادى بضرورة قتلنا وانقاذ الملكة ، ونشب عراك بيننا وبينهم ، وابلى الجاويش بلاء حسنا ، حتى ولى المهاجمون الادبار ، بعد ان اصابوا (كويك) بضربة سيف فى راسه ، وعلى الرغم من إصابته راح يقاتل كالأسد ، حتى اطمأن إلى سلامة الملكة ، فارتمى خائر القوى ، إلى ان خر صريعا امامكما .

قال هذا ودموعه تنهمر فى غزارة ، فاخذنا نهدىء من نفسه ، ونفوسنا تبكى الما وحسرة على (كويك) ، وحملنا جثة هذا الاخير إلى مخدع الملكة ، التى اصرت على ان يوضع من دافع عنها حتى الموت على فراشها ، وراحت تضمد جراح (اورم) ، وهى تقول فى توتر :

— لم نعد بمأمن هنا .. لقد فشلت مؤامرة عمى لاختطافى ، ولكنه لن يلبث ان يعود بألف من اعوانه .

سالها الكابتن مستنكرا :

— ماذا تعنين ؟.. هل نهرب من (المور) ؟

أجابته فى يأس :

ـ وكيف لنا أن نفعل ، ورجـال (جوشيا) يحرسون الطـريق ، و (الفنج) ينتظرونـكم فى الخارج .. إن (الأباتى) يكرهونكم ، وسيقتلونكم بلا تردد ، بعـد أن اتممتم ما ابقوا على حياتكم من اجله .. إنهم شـعب ناكـر للجميل ، وخطئى أن دفعتكم للمجىء إلى هذا البلد العاق .

وانخرطت فى بكاء حار ، فجثا (جانيت) عنـد قدميها ، وقال :

ايا سليلة الملوك ، استمعى إلى خادمك المخلص الأمين ، فهناك ، على مسيرة خمسة كيلومترات ، يوجد خمسمائة من رجالك المخلصين ، يعملون تحت قيادتى ، ويفتدونك بالـروح والـدم ، فهلم نلحق بهم .. يمقتون (جوشيا) أشد المقت .

تطلعت (مجيدة) إلى الكابتن لحظات ، وكأنما تسأله المشورة ، ثم قالت :

ـ فكرة جيدة .. هلم بنا إلى هناك .

ولم تمض عشر دقائق حتى كنا نختفى فى معاطف ثقيلة ، ونختلط بالجموع المحتشدة ، التى اجتمعت فى الميـدان الكبير ، وراحت تشـير إلى صـخرة تتوسطه ..

صخرة على شكل اسد ..

وأمام ذهولنا ودهشتنا ، بدا لنا معبود (الفنج) واضحا ، وقد قذف به الانفجار إلى أرض (المور) ، وبدا (جافيت) شديد الرعب ، وهو يتطلع إلى هذا المشهد ، فربت (هيجز) على كتفه ، قائلا :

ـ لا ترتجف على هذا النحو يا رجل .

التفت إليه (جافيت) ، وقال فى ارتياع :

ـ الم تفهم ما يعنيه هذا يا سيدى ؟.. لقد حلت اللعنة على (الأباتى) ، وبدلا من ان يرحل (الفنج) بعيدا ، فإنهم سيتبعون معبودهم إلى هنا.

وكان (جافيت) على حق ..

لقد انعكست الآية ، وصار على شعب (الأباتى) ان يقاتل من أجل حياته وحريته ..

أو يموت ..

* * *

١١ ـ عودة الغائب ..

لم نكد نبلغ موقع جيش (جافيت) الصغير ، حتى لمسنا الفارق الهائل بين الفرق المنظمة ، وسائر شعب (الأباتى) ، فقد اعترضنا فور اقترابنا من موقع الجيش جندى حراسة ، وشهر سيفه فى وجوهنا ، هاتفا فى صرامة :

ـ توقفوا ، واكشفوا عن شخصياتكم .

أجابه (جافيت) فى هدوء :

ـ إننى رئيسك .

قال الحارس فى حزم :

ـ معذرة يا سيدى ، ولكننى أصر على ان تكشفوا وجوهكم .

كشف (جافيت) وجهه للحارس ، الذى حياه فى احترام ، وكشفنا وجوهنا بدورنا ، فلم يكد الحارس يرى وجه (مجيدة) حتى خر ساجدا ، وهو يهتف :

ـ لبيك يا (أم النجاشى) وسليلة الملوك .

أجابته فى ترفع ، شف عن طبيعة الدماء الملكية ، التى تسرى فى عروقها :

ـ استدع فرقتك كلها ؛ لأبلغها أوامرى .

لم تمض دقيقة واحدة ، حتى جثا أمامها خمسمائة رجل موفورى القوة والصحة ، ثم انتظموا فى صفوف منسقة ملتزمة ، فوقفت هى أمامهم تقول :

ـ أيها الرجال المخلصون ، لم يكد معبود (الفنج) ينهار الليلة ، حتى اتى عمى (جوشيا) ينشد قتلى ، او سجنى فى قلعته عند البحيرة .

سرت همهمة غاضبة مستنكرة بين الجنود ، فأضافت فى حزم :

ـ الأسوأ هو اننى لم اكد ارفض ذلك ، حتى اصطحب عمى ثلة من رجاله ، لانتزاعى عنوة ، ولكن الأجانب الذين يخدموننى هبوا لنجدتى ، ودارت بينهم وبين جنود عمى معركة حامية الوطيس ، نجح خلالها الأجانب فى إجبار قوات عمى على الانحساب ، وعمى يجمع الآن أعوانه ، ليعيد الكرة .

تعالى صياحهم إلى عنان السماء ، وهم يهتفون :

ـ فداك دماؤنا واوراحنا يا سليلة الملوك .. مرى نطع .. نحن رهن إشارتك يا زهرة (المور) .

ورفع أحد ضباطهم سيفه عاليا ، وهو يهتف :

ـ فلنسحق راس الأفعى .

ولكنها صاحت مستنكرة :

ـ انشن حربا اهلية ؟.. انشعل نيران الفتنة وسط شعب يواجه عدوا مشترك ؟.. ثم كيف لكم بمواجهة جيش (جوشيا) الجرار ؟

سألها الكابتن :

ـ ماذا تقترحين إذن ؟

اعتدلت فى اعتزاز ، وهى تقول فى حزم :

ـ أن نعود مع هـذا الجيش الصـغير إلى القصر ؛ لنقف جميعا فى مواجهة الأعداء .

غمغم (هيجز) فى ألم :

ـ من الأفضل ان نسرع إذن ، فساقى تؤلمنى للغاية ، واكاد اسقط نائما بين ايديكم .

رفعت (مجيدة) ذراعها ، وهتفت :

ـ هيا يا رجال .. حلو الخيام ، واستعدوا للسير .

لم تكد تتم عبارتها ، حتى تناهت إلى مسـامعنا جلبة ، وابصرنا رجلا يقوده بعض حراس الجيش الصغير إلينا ، وخيل إلى فى البداية انه جاسوس ، ثم لم البث ان انتبهت إلى ملابسه الغريبة ، وثوبه الفاخر ، وتلك القلادة الذهبية ، التى تزين عنقه ،

فرنمت عينى إلى وجهـــه ، وانطلقت من أعماقى شهقة قوية ، وأنا اهتف :

ـ ولدى ؟.. (رودريك) ؟!

وفى اللحظـــة التالية كان كل منـــا بين ذراعى الآخر ، يغمر وجه صاحبه بالقبلات ، والتف حولنا الجميع فى سعادة لعثورى أخيرا على ابنى الضائع ، وهتفت به فى فرحة غامرة :

ـ كيف جئت إلى هنا ؟

أجابنى فى سعادة :

ـ على قدمى يا ولدى .

وهتف به (هيجز) :

ـ كنا نحسبك قد تزوجت الليلة يا (رودريك) .. أين زوجتك ؟

أطلق (رودريك) تنهيدة حارة ، تحمل الكثير من الخلاص والارتياح ، وهو يقول :

ـ لم يتم الزواج لحسن حظى .. لقد سارت المراسم سيرها الطبيعى ، وبقى أن يضع الكاهن عصاه على راسينا ، ليعلننا زوجا وزوجة ، وهنا ارعدت الدنيا ، واهتزت الجبال ، وســـاد الهرج والمرج ، وراح (الفنج) يعدون فى كل مكان ، وهم يصرخون : « سحر الرجل الأبيض قتل معبودنا ،

الذى لم يبرح مكانه منذ الخليقة .. إنه سحر الرجل الأبيض .. » ، وراح سلطان (الفنج) يشق ثوبه الملكى ، ويصرخ : « اجـروا ايهـا (الفنج) .. هاجروا .. لا يجب أن يبقى واحد منـا فى هـذه الأرض ، بعد موت معبودنا . » ، وراحت خطيبتى ، ابنة السـلطان ، تشق ثيابهـا بدورها ، وتلطم خديها ، وراحت تعدو مع الجموع الراكضة نحو الشرق والجنوب ، وقد اصيب الجميع بذعر هائل ، لم ار له مثيـلا فى عمـرى كله ، ولكننى انتهزت الفرصة ، وانطلقت أنا نحو الغرب ، وقادنى ممر ضيق إلى هنا ، فأمسك بى هؤلاء القوم .

ضممته مرة أخرى إلى صدرى ، وأنا اقول :

ـ مسـكين انت يا ولـدى .. استجرت من الرمضاء بالنار .

سألنى فى دهشة :

ـ ماذا تعنى يا ابى ؟

اجبته فى حزن :

ـ لقد تطاير رأس معبود (الفنج) مع الانفجار . وهو يرقد الآن فى سهول (المور) ، وهذا يعنى أن (الفنج) سيسعون إليـه ، وسـنقع جميعـا فى قبضتهم .

هز رأسه ، وقال :

— لست اظن هذا يا والدى ، فـ (الفنج) يجهلون ما اصاب معبودهم ، إلا انه قد نسف نسفا ، ولقد هجروا (هرمق) إلى الشرق ، فور حدوث هذا ، ولن يكفـــوا عن ابتعادهم ، ما داموا يجهلون ان راس المعبود هنا .

درست كلماته فى راسى لحظات ، ثم قلت :

— ارجو ان تكون محقا يا ولدى .. ارجو ذلك من اعماق قلبى .

ثم ابتسمت ، مضيفا فى حنان :

— والآن تعال اقدمك إلى سليلة الملوك .

استقبلته الملكة فى حفاوة بالغـــة ، وانحنى هو يلثم اصابعها ، وهو يغمغم مفتونا :

— إنها اجمل إمراة رايتها فى عمرى كله يا ابى .

ولم يكن اول من تفتنه الملكة ..

* * *

عدنا ادراجنا إلى (المور) ، على راس جيش (جافيت) الصغير ، واعترضتنا حامية صغيرة ، على مشارف المدينـــة ، ولكن الملـــكة اعلنت عن شخصيتها ، فافسح لنا رجال الحامية الطريق ،

ـــ والآن تعال أقدمك إلى سليلة الملوك .

استقبلته الملكة فى حفاوة بالغة .

وابتعدوا على صـــهوة جيادهم ، يسبقوننـــا إلى المدينة ..

ولم نكد نبلغ المدينة حتى فوجئنـــا بان أخبـــار الأسير الأبيض ، الذى عاد من بلاد (الفنج) على قدميه ، قد سبقتنا ، فأعلن (جافيت) أن (الفنج) قد هاجروا إلى الشرق ، وهم يجهلـــون ما حدث لمعبودهم ، وبددت هذه الأخبار حزن (الأباتى) ، وأشاعت بينهم الفـــرح ، وأطلقته من صدورهم ، فراحوا يرقصون ويهتفون فى الطرقات ، ويهنئون انفسهم على شجاعتهم ، التى دفعت (الفنج) للفرار من وجوههم والهجرة إلى الشرق !! ..

ومضينا نحن ، وسط هـــذه الاحتفـــالات ، إلى القصر ، دون أن نلفت إلينا الأنظـــار ، ولكن فجأة اعترضنا جيش ضخم ، من ألف رجل ، وصـــاح قائدهم فى (جافيت) :

ـ كيف غاردتم موقعكم ؟.. من امركم بهذا ؟

اجابه (جافيت) فى حزم :

ـ امرنى من لا املك مخالفة اوامره .

قال القائد فى صرامة :

ـ لو انك تقصد البيض فانت خاسر ؛ فلدينا

أوامر من أميرنا وقائدنا (جوشيا) بإلقاء القبض عليهم .

قال (جافيت) فى صوت جهورى :

ـ لقد أمرتنى سليلة الملوك بحملهم إلى قصرها.

أجابه القائد فى صرامة وحدة :

ـ سليلة الملوك لا تملك إصـــدار قرار ، ما لم يقره المجلس .

وهنـــا كشفت (مجيدة) النقاب عن وجههـــا ، وصاحت فى غضب :

ـ اقبضوا على هذا القائد أيها الضباط ، بأمر مليكتكم ، واقطعوا راســـه ، وارسلوه إلى أميره (جوشيا) ، الذى دفعه إلى هذا .

شحب وجه القائد ، عندما رأى وجه (مجيدة) ، والقى نفسه عن جواده ، وركع عند قدميها يمسح وجهه فى ذيل ثوبها مستغفرا ، ولكنها قالت فى حزم :

ـ سنثأر لمقتل الجاويش .. نفذوا الأمر .

وفى اللحظة التـــالية كان الجيش الجرار يعـــود

ادراجه فى موكب حزين ، حاملا راس قائده ، فى حين صاحت (مجيدة) بجيش (جافيت) :

ـ هيا .. سنواصل سيرنا نحو القصر .

بدت كأحسن ما تبدو الملكة ، وهى تتقدم الجيش الصغير ، فى طريقها إلى القصر ..

ولكن فجأة حدث ما لم يكن فى الحسبان ..

لقد ارتد إلينا جيش الألف رجل ..

ارتد مقاتلا ..

* * *

تقول الأمثال إن الشدائد تبرز الرجال ..

وهذا ما حدث بالضبط ..

لقد كان جيش (جوشـــيا) ضعف تعداد جيش (جافيت) ، ولكن رجال هذا الأخير كانوا من خيرة الرجـــال ، ولقـــد تجلت شجاعتهم واستعداداتهم القتالية على الفور ..

ودار القتال حامى الوطيس لنصف الساعة فقط ، وبعدها انطلق من تبقى من جيش (جوشيا) يولى الأدبار ، وقد فقدوا نصف رجالهم ، فى حين لم يفقد جيش (جافيت) سوى خمسين رجلا فحسب ..

ودخلنا القصر الملكى مع الفجر دخول الظافرين ، ولكننا وجدنا بعض النيران تشتعل فيه ، فأسرعنا نطفئها ، حتى هدأت الأمور مع مشرق الشمس .. وعادت الملكة إلى عرشها ..

* * *

كنت أتحدث مع ولدى (رودريك) فى الصباح التالى ، عندما جاء (جافيت) يدعونا لمقابلة سليلة الملوك ، فأسرعنا إليها ، واستقبلتنا فى صوت حزين أسف ، وهى تقول :

— عبر أحد السهام نافذة حجرتى فى الصباح ، حاملا رسالة من عمى (جوشيا) ، يقول فيها : « فلتسلم (أم النجاشى) لنا ضيوفها البيض ، الذين أفسدوا عقلها ، ودفعوها إلى إراقة دماء شعبها ، وأن تسلمنا معهم جيش (جافيت) ، حتى نعفو عنها وعن الشعب ، ونتخذها زوجة لنا ، وإلا فسنعمل سيوفنا فى رقاب الجميع بلا رحمة » .

ثم رفعت رأسها إلينا ، وسألت :

— ما رأيكم ؟

قال الكابتن :

ـ إننا بين المطرقة والسندان فى الواقع ، فإما أن يهاجمنا (جوشيا) واعوانه ، أو يحاصروننا حتى نموت جوعا .

غمغمت فى شحوب :

ـ لقد نسيت احد شروط هذا الفاجر يا كابتن .

واشارت إلى الفقرة التى يطلب فيها (جوشيا) الزواج منها ، ثم اعتدلت قائلة ، وهى تبرز خطابا مكتوبا :

ـ على اية حال ، لقد اجبت خطاب (جوشيا) بالفعل .

وراحت تقرا :

ـ « يا شعبى الثائر ورعيتى المتمردة .. سلمونى عمى (جوشيا) واعضاء المجلس الذين تمردوا على حكمى ، فاحاكمهم واعفو عن الآخرين ، وإلا فإنه مع اكتمال القمر سيقع لبلاد (المور) ما وقع لبلاد (هرمق) ، وهذا ما هبط به الوحى على ، ولتعلموا ان املكم الوحيد فى مليكتكم ، وضيوفها البيض » .

سالتها فى دهشة :

ـ ماذا تعنين بالوحى الذى هبط عليك ؟

أجابتنى فى هدوء :

ـ لقد غرقت فى نوم عميق مع الفجر ، وشاهدت فى نومى امرأة سمراء ، مهيبة وقور ، عرفت فيها جدتى (بلقيس) ، التى تطلعت إلى فى مزيج من الحب والأسى، ثم ازاحت من امامى ستار المستقبل ، فرايت البدر يتوسط السماء ، وتحته بلاد (المور) اطلالا ، وقد اكتظت شوارعها بالقتلى .

تمتم الأستاذ (هيجز) :

ـ إنها مجرد نبوءة عبرانية قديمة .

فوجئت بولدى (رودريك) يقول :

ـ لقد انتهى عهد (الأباتى) .

التفتنا إليه جميعا فى دهشة ، فاستطرد فى جدية :

ـ لقد علمنى كاهن قديم تفسير الأحلام ، وهذا الحلم يعنى نهاية شعب (الأباتى) ، مع اكتمال القمر .

اما الكابتن ، فقد واجه (مجيدة) ، قائلا فى قلق :

— هل تعلمين أن جوابك على رسالة عمك ، يعنى إشعال حرب غير متكافئة ؟

أجابته فى هدوء ، وهى تتطلع إلى حشود (الأباتى) ، فى الميدان المواجه لقصرها :

— من يعلم كيف تنتهى هذه الحرب ؟

وبدا قولها أقرب إلى الصواب ..

نعم .. من يعلم ؟..

* * *

١٢ ـ الهزيمـة ..

لم تكن الحرب متكافئة بالفعل ، فجيش (جافيت) لا يعدو سدس حجم جيش (جوشيا) ، ثم أن المؤن فى القصر لم تكن تكفى إلا لثلاثة أيام فقط ، بالإضافة إلى أن أبواب القصر وأثاثاته كانت مصنوعة فى الغالب من الخشب ، مما يجعل اشتعال الحرائق أمرا متوقعا ميسورا ، وعلى الرغم من ذلك فقـد رحنا نحكم المزاليج ، ونوزع الحراس على المنافذ والأبواب ..

وطيلة الأيام الثلاثة التالية ، حاول (الأباتى) اقتحام إحدى البوابات ، إلا اننا اصليناهم نيران مسدساتنا وبنادقنا ، وسـهام رجال (جافيت) ، حتى ولوا هاربين ، وبعدها اكتفوا بمحاصرتنا ، حتى يغلبنا الجوع ، ونضطر إلى التسليم ..

وراودتنا فكرة أن نخرج إليهم ونقاتلهم ، وكان من رأى (جافيت) أن الموت فى سـاحة المعركة أشرف منه على المشانق ، ولم يؤيد هذا القول إلا ذلك الجوع الذى نهش أمعاءنا ، مع نفاد المؤن ، فاتخذنا قرارا بالخروج لقتال (الأباتى) فى الصباح التالى ، مهما كانت النتائج ..

ولكن القدر لم يمهلنا لنفعل ..

لم تكد تشرق شمس الصباح التالى ، حتى بدا لنا أن سيلا من الشهب يسقط على القصر ، من قمة الصخرة المشرفة عليه ، فهتف الكابتن :

ـ يا إلهى !.. اى شهب هذه ؟

ثم لم يلبث أن صاح ملتاعا :

ـ رباه !! إنها اسهم مشتعلة .. اقرع ناقوس الخطر يا (آدمز) .

وهوت الأسهم المشتعلة على القصر ، وراحت النيران تندلع فى كل ركن من القصر ، واصابنا ذعر هائل ، ونحن نعدو من بقعة إلى بقعة ، وكلما أطفأنا ركنا اشتعل آخر ، واصابت النيران بعض الرجال ، فراحوا يعدون فى الم ورعب ، كجمرات ملتهبة حية ، وراحت وصيفات الملكة يصرخن ويعولن فى رعب قاتل ، وارتفع صوت (جوشيا) من الخارج ، يهتف برجاله :

ـ اقتلوا من تشاءون ، ولكن الويل كل الويل لمن يمس شعرة واحدة من راس سليلة الملوك .

هوت الضربات على الأبواب فى عنف ، وصاحت

الملكة بوصيفاتها ، تطلب منهن الفرار بأنفسهن ، فأطعنها فى ارتياح ، فى حين أمسك الكابتن بيد الملكة ، وهتف :

ـ تعالوا .

صاحت فى عناد :

ـ لا .. إننى أفضل الاحتراق حية ، على تسليم نفسى لـ (جوشيا) .

صاح بها :

ـ لن نذهب إلى (جوشيا) .. سنذهب إلى الكهف ، حيث مقابر ملوك (الأباتى) ، ففى نفق ضيق كهذا يستطيع أربعة رجال ببنادقهم صد آلاف (الأباتى) .. هيا يا (جافيت) .

انطلقنا إلى الكهف ، وعبرنا مغارة مقابر الملوك ، وأشار (جافيت) إلى السرداب الذى يربط ما بين الكهف ومغارة الأسود ، وقال :

ـ يمكننا ان نفر من هنا .

اعترض (هيجز) فى خوف :

ـ وما الفائدة ؟.. سنفر من (الأباتى) لنقع فى أيدى (الفنج) .

هتف ولدى (رودريك) :

ـ لا .. لقد رحل كل (الفنج) عن (هرمق) .

وافقنا على اقتراح (جافيت) ، بناء على راى (رودريك) ، ولكن هيهات ..

كان السرداب قد انسد تماما بالأحجار والصخور ، من جراء الانفجار ، ولم يكن عددنا أو حالنا يصلح لرفعها ، فأصابنا اليأس مرة أخرى ، وخاصة مع ضعف المشاعل ، وقرب انطفاء نيرانها ..

ثم لفظت المشاعل انفاسها الأخيرة ، وتركتنا فى ظلام دامس ، والجوع ينهش امعاءنا ..

وفجأة هتف (جافيت) ، وهو يجثو عند قدمى الملكة :

ـ أيا سليلة الملوك .. عبدك (جافيت) شجاع صنديد فى ضوء الشمس وتحت النجوم ، ولكنه هنا ، وسط الجوع والظلام ، اشد جبنا من (جوشيا) .. ارجوك يا مليكتى ، دعينا نعد إلى النور ، ونسلم انفسنا للأمير ، فقد يعفو عنا ، ويحفظ حياتنا .

هزت (مجيدة) راسها فى صمت ، فاتجه (جافيت) إلى الكابتن ، مستطردا :

— أترضى يا سيدى أن تكون سبب مصرع سليلة الملوك جوعا وعطشا ؟

الا يدفعك حبك لها إلى صونها من الهلاك ؟

اجابه الكابتن فى صوت ضعيف ، بدا وكأنه ينبعث من أحد القبور :

— أنت على حق يا (جافيت) .. اصغى إليه يا (مجيدة) ، إننا سنموت بيد الجوع او بأيدى (الأباتى) ، اما انت فخروجك من هنا يعنى نجاتك حتما ؛ لأن (جوشيا) لن يمسك بسوء .. هيا يا (مجيدة) .. ارحلى .. ارحلى لتنجى بعمرك .

اجابته فى انفعال ، على الرغم من ضعفها وتهالكها :

— لا يا (اورم) .. إننى افضل الموت على الزواج من ذلك الفاسق (جوشيا) .. وليمنحنى القدر فرصة ان اموت إلى جوارك .. مر (جافيت) بالتزام الصمت ، او اطرده من هنا ، حتى لا يزعجنى مرة اخرى .

ولم يعد (جافيت) إلى هذا الحديث بعدها .. ابدا ..

* * *

قضـــينا فى ذلك الكهف يومين كـــاملين ، نهش خلالهما الجوع امعاءنا ، ولم يكف ذلك القدر الضئيل من الميـــاه لمنحنا شـــيئا من الطاقة ، ولقد اختفى (جافيت) ، ولكن ذلك لم يلفت انتباهنا كثيرا ، فقد ادركنا انه قد ذهب ليموت فى مكان ما ، وشعرنا أن الموت يحيط بنا كلنا مثله ، وراح الضعف يحيط بى فى شدة ، واذكر أن آخـــر عود ثقاب اشعلته قـــد جعلنى أرى الأستاذ (هيجز) ، وهو يخط بضـــع كلمات على قبعته ، وهو يظنها مفكرته ، وقد ارتدى منظاره ، على الرغم من الظلمة ، وإلى جواره وقف (رودريك) ينشـــد بالعربية والإنجليزية ، وعلى مقربـــة منهمـــا رايت (مجيدة) تجلس إلى جوار (أورم) ، وقـــد احاطها هو بذراعيه فى حنـــان ، واسندت هى راسها إلى كتفه ..

ثم غمر وجهى ضوء قوى ..

وفقدت الوعى ..

وفجاة استيقظت ..

استيقظت لأجد نفسى فى حجرة كبيرة ، راقدا على فراش وثير ، وإلى جوارى يرقد (هيجز) والكابتن و (رودريك) ..

ثم دخل خدم (الأباتى) يحملون الطعام ، وراحوا يطعموننا ، ثم تركونا نعود إلى النوم ..

وتساءلت عما يعنيه هذا ..

أهو حلم ؟..

أهو أمل بالنجاة ؟..

ولكن لا ..

إن مذاق الحساء واللحم ما زال فى فمى ، وبين أسنانى ..

إنها حقيقة إذن ..

لقد نجونا ..

لقد اخرجونا من الكهف ، وحملونا إلى هذا المكان !.

ولكن من فعل هذا ؟..

ولماذا ؟..

لماذا ابقوا على حياتنا ؟..

لم أجد جوابا لكل هذه الأسئلة ، ولم أحاول حتى

ان القيها على خـــدم (الأباتى) ، الذى اطعموننا الحسّاء واللحم خمس مرات فى يوم واحـــد ، حتى استعدنا عافيتنـــا ، ورايت (هيجز) يجلس على فراشه ، ويحدق فى وجهى ، قائلا

ـــ انجونا ، ام انه يوم الحساب ؟

اجبته فى خفوت :

ـــ الأرجح انه يوم الحساب .

عقد حاجبيه ، وهو يقول :

ـــ لو اننا وقعنا فى ايدى (الأباتى) ، فالجواب الأصح هو اننا فى الجحيم .

ثم هتف بالكابتن :

ـــ استيقظ يا (اورم) .. لقد خرجنا من الكهف على اية حال .

نهض الكابتن ، وتطلع إلينا لحظة ، ثم سألنا :

ـــ اين (مجيدة) ؟

لم نملك جوابـــا لســـؤاله ، ولكن (رودريك) اجاب :

ـ لقد حملونا إلى خارج الكهف ، وكان (جانيت) معهم .. ولقد رايتهم يحملون سليلة الملوك إلى جهة أخرى .

حاولنا هذه المرة أن نلقى بعض الأسئلة على الخدم ، ولكنهم رفضوا رفضا باتا منحنا اية أجوبة ، ولقد سمعت أحدهم يهمس لزميله ، وهما يغادران الحجرة :

ـ متى تنتهى خدمتنا لهؤلاء الأوغاد البيض ؟

أجابه زميله :

ـ سيقرر المجلس هذا ، فى غضون يوم او يومين .

وعند الغروب سمعنا أصواتا تهتف أسفل النافذة :

ـ أعطونا الغرباء .. نريد الغرباء .. لقد سئمنا الانتظار .

فغمغم الأستاذ (هيجز) :

ـ من المقلاة إلى النار مرة ثانية .

وبدا لى قوله أقرب ما يكون إلى الصواب ..

لقد نجونا من الموت فى الكهف ، لنقع فى أيدى من يمقتوننا أشد المقت ..

ولقد بقينا فى هذا الكهف ثلاثة أيام ، نعمنا فيها باطايب الطعام والشراب ، كالنعاج التى يتم تسمينها للذبح ، وفى اليوم الرابع ، وبعد أن انتهينا من تناول طعام الافطار ، اقتحم عدد من الجنود حجرتنا ، بقيادة ضابط غليظ خشن الطباع ، أخبرنا فى شماتة أننا سنذهب إلى المجلس ، لنحاكم أمام سليلة الملوك ، بتهمة قتل عدد من الرعية ..

وذهبنا ونحن نجهل مصيرنا هذه المرة ..

نجهله تماما ..

* * *

١٣ ـ المحـاكمة ..

مضينا إلى المجلس وسط حلقة من الجند ، تعمل على حمايتنـا من غضب الشـعب ، حيث راحت النسـاء يلوحن بقبضاتهن فى وجوهنا ، ويبصقن علينا ، فى حين رشقنا الأطفال بالحجارة ، ووجوه الجميع تحمل كل الكراهيـة والتشفى والبغض ، فسألنى (رودريك) ، وهو يدلك كتفه ، بعد إصابته بحجر :

ـ لمـا يكرهونكم على هذا النحو يا والدى ، على الرغم من كل ما اديتم لهم من خدمات ؟

اجبته فى حزن :

ـ لأن الملكة تحب احدنـا يا ولـدى ، ولأنهم يكرهون الأجانب ، وككل الجبنـاء ، سيسـعون للانتقام منا ، بعد ان امنوا شر (الفنج) ، واصبحوا بلا حاجة لوجودنا .

غمغم فى غضب :

ـ كم اتمنى ان يدرك (الفنج) خطأهم ، ويعودا للثأر من هؤلاء الجبناء .

بلغنا مجلس الملكة الكبير فى صعوبة ، وبعد أن أصابنا بعض الحصى والحجارة واخترقنا صفوف وجموع النبلاء والكهنة والقادة ، الذين راحوا يسخرون منا ، ويعبرون عن شماتتهم ومقتهم ، حتى وضعنا الحراس فى المكان المخصص للمتهمين ، إلى يسار عرش (مجيدة) ، التى اخفى نقابها الموشى بالنجوم الفضية وجهها ، وسمعت الكابتن يتنهد فى ارتياح ، وهو يقول :

ـ حمداً لله .. إنها بخير .

قال (هيجز) فى حنق :

ـ كان ينبغى أن تتخذ مكانها إلى جوارنا ، فى قفص الاتهام ، لا فوق العرش .

أشار إليه الكابتن بالصمت ، ونهض ممثل الاتهام يتهمنا باننا قد انتهزنا فرصة وجودنا على رأس جيش (المور) ؛ لنثير حربا اهلية ، ونشعل نيران الفتنة وسط شعب (الاباتى)، مما تسبب فى إراقة دماء العديد من الاهالى بأيدى بعضهم البعض ، إلى جوار من قتلناهم بأيدينا ، ثم اختطفنا الملكة ، وهربنا إلى مدينة الأرواح تحت الأرض ، لولا أن كان بيننا (جانيت) ، أحد رجالهم المخلصين ، الذى كشف لهم عن مخبئنا ..

وانتهى ممثل الاتهام من حديثه ، فسألنا القاضى :
ـ هل هذا صحيح ؟

نهض الكابتن نيابة عنا ، وقال :

ـ ليس هناك مجال لاتهامنا بقتل من سقطوا فى ساحة القتال ، فقد كنا ندافع عن حياتنا ، ثم إننا لم نبدأ تلك الحرب الأهلية ، بل بداها أميركم .

سرت همهمة غاضبة وسط الحضور ، ولكن الكابتن تجاهلها تماما ، وهو يواصل حديثه فى شجاعة :

ـ أما عن باقى الاتهامات ، فساترك لسليلة الملوك وحدها التحدث عنها ؛ لأنها تعرف حقيقة ما حدث .

صاح بعض المتفرجين :

ـ لقد اعترفوا بجريمة القتل .. أصدروا الحكم بإعدامهم فورا .

نهض القضاة من مجالسهم ، والتفوا حول (مجيدة) ، يشاورونها فى الأمر ، وقضوا حولها بعض الوقت ، ثم عادوا إلى مقاعدهم ، فرفعت (مجيدة) يدها ، وساد المكان صمت تام ، قبل أن تقطعه هى ، قائلة فى برود :

ـ لقد اعترفتم أيها الغرباء بإثارة حرب أهلية ، أهدرت فيهـا دماء وأرواح بريئة طاهرة ، وهـذا لا يحتاج إلى أدلة أو براهين ، فدمـوع اليتـامى والأرامل ودماء الشهداء تشهد بذلك ، ثم تأتى جريمة اختطافى ، واحتجازى فى أرض الأرواح ، لتضمنوا سلامتكم .

صعقنا حديثها ، وعقد السنتنا فى حلوقنا من فرط الذهول ، فى حين تابعت هى بنفس اللهجة الباردة :

ـ إنكم تستحقون ما هو شر من الموت ، بسبب هذه الجرائم ، ولكننا سنذكر لكم تدميركم لمعبـود (الفنج) ، وسنعفو عنكم بالنسبة للإعدام ، ولكننى آمركم بالرحيل اليوم إلى بلادكم ، بما لكم من متاع ، وبما جلبتموه معكم من مقبـرة الملوك ، والويل لكم لو عدتم إلى هذه البلاد ، ولتحمدوا الله ؛ لأنكم وجدتم شعبنا كريمـا ، أصر على التمسك بالاتفـاق بين مجلسـه وبين جماعة من البيض الغربـاء ، حتى لا يوصم بالتنـازل عن شرفه يومـا .. ارحلوا ، ولا تدعونا نرى وجوهكم بعد اليوم .

هتف البعض مؤيدين ، وصـاح البعض الآخـر غاضبا :

ـ لا .. لا .. يجب أن يقتلوا .

اشارت (مجيدة) بيدها فى صرامة ، فعاد الصمت يسود المكان ، لتقول هى فى حزم :

ـ حذار ان يصمكم التاريخ بانكم شعب من القساة الجبناء ، معدومى الشرف .. لقد دعونا حفنة من كلاب البيض لتصطاد لنا وحشا يحمل اسم (هرمق) ، ولقد نجحوا فى مهمتهم ، واحسنوا الصيد ، ويستحقون ان نبقى على حياتهم ، وان نمنحهم كومة العظام التى ارتضوها اجرا لهم ، والتى يتصورون انهم قد ربحوها بعرق الجبين .. وما قيمة حفنة من العظام عند شعب عظيم مثلكم ، لم يلوث ارضه بدماء كلاب بيض .

نقل حديثها الحماس إلى قلوب الجميع ، فارتفع هتاف هادر :

ـ فليرحلوا .. اربطوهم إلى ظهور الجمال ، وليرحلوا بعيدا .

قالت فى حزم :

ـ هذا ما سنفعله ، ولكن لدى كلمة لكم يا شعبى .. لقد تصور بعضكم او ظن اننى احب احد هؤلاء الكلاب البيض ، ولكنكم نسيتم انه هناك نوع من الكلاب لا يعمل إلا إذا ربتنا على راسه ،

وهذا ما فعلته مع أحد هؤلاء البيض ، فقد رحت أربت على رأسه ؛ لأستغل علومه ومواهبه ، وأدواته الجهنمية ، التى هدمت معبود (الفنج) .. أتصورتم يا شعبى المجيد أن حفيدة (سليمان) و (بلقيس) ، وابنة الملوك والحكمة ، وزهرة (المور) ، يمكنها أن تهبط من عرشها ، وتمنح قلبها لغريب ضال ، جاء يسعى خلف كنوز الملك (سليمان) ؟.. لا .. إننى أرثى لحال هذا الغريب، الذى تصور يوما أننى قد أحببته ، وأدعوه فى الغد لحضور حفل زفافى إلى الرجل الذى وهبته نفسى .

ومدت يدها إلى (جوشيا) ، الذى انحنى يلثم أصابعها مزهوا فخورا ، وتمتم ببضع كلمات لم تبلغ مسامعنا ، وسط دوى القاعة بالهتاف والتصفيق ، إلى أن علا صوت الكابتن كل الأصوات ، وهو يقول :

ـ لقد سمعنا كل شىء .

ران الصمت على القاعة إثر صيحته ، وتطلع إليه الجميع ، فانخفض صوته ، وهو يقول فى حزم بارد :

ـ سمعنا حديثك يا سليلة الملوك ، ونشكر لك اعترافك بخدماتنا ، ومخاطرتنا بأرواحنا فى سبيل هدم معبود (الفنج) ، ونعترف بكرمك عندما تطلقين

سراحنـــا ، وتمنحيننـــا ما وعدت من مكافآت مقابل ذلك ، وهذا دليل على كرم شعب (الأباتى) ، الذى سنذكره دوما ، لو قدر لنا العودة إلى وطننـــا ، ولكن لى رجاء أخير يا زهرة (المور) .

مالت بجسدها إلى الأمام ، وكأنما يهمها كثيرا أن تستمع إلى مطلبه ، فقال فى صوت قوى :

— أريد أن أرى وجهك لآخر مرة ، دون نقاب ، لأتأكد من أن من استمع إليهـــا هى نفســـها سليلة الملوك ، لا امرأة أخرى متنكرة فى ثوبها وصوتها .

ران الصمت تماما بعد كلماته ، واتجهت العيون كلهـــا إلى حيث تجلس (مجيدة) ، وكأنمـــا تملكهم الشغف لمعرفة رد فعلها وجوابها ..

وفى بطء شديد ، رفعت (مجيدة) نقابها ..

وتراجع الكابتن فى دهشة ..

بل تراجعنا جميعا ..

لقد بدت لنا (مجيدة) أخرى ..

(مجيدة) الشـــاحبة الذابلة ، وكأنهـــا هيكل أو شبح امرأة ..

وأدركنا جميعا لحظتها سر موقفها النبيل ، ومدى معاناتها ، وهى تلعب ذلك الدور الهائل ، مضحية بنفسها فى سبيل إنقاذنا ..

وهنا سقط الكابتن ..

سقط مغشيا عليه ، وكانما لم يحتمل كل ذلك القدر من العواطف والانفعالات ..

وكادت (مجيدة) تهوى خلفه ، لولا ان تشبثت بذراعى عرشها ، وبذلت اقصى جهدها لتبدو هادئة ساكنة ، وهى تقول :

— لقد فقد وعيه لما لحقه من إهانات .. اتركوا لرفيقه الطبيب (آدمز) مهمة العناية به ، وعندما يستعيد وعيه أخرجوهم من (المور) ، وامنحوهم مؤن تكفى لأربعة أيام ، ولا يمسهم أحد باذى ، حتى لا يقال إننا قد أطلقنا سراحهم لنقتلهم الما وجوعا بعيدا عن أبوابنا .

ولوحت بيدها معلنة انتهاء المجلس ، ونهضت مغادرة المكان ، وخلفها كهنتها وقوادها ووزراؤها ..

وحمل بعض (الأباتى) الكابتن على محفة ، وسمعت أحدهم يقول فى سخرية :

— انظروا إلى ذلك الكلب الأبيض ، الذى منى نفسه بالحصول على زهرة (المور) ، فلم يحصد سوى الندم والعار .. أظنه قد لقى حتفه كمدا .

شاركه الباقون سخريته وتهكمه وشماتته حتى

بلغنا سجننـــا ، فرحت أعمل على إنعاش الكابتن ، حتى استعاد وعيه ، وقال فى هدوء :

ـــ لقد رايتم ما حدث يا رفاق ، واستحلفكم بحق السماء الا يذكر احدكم (مجيدة) بسوء ، والا يتحدث عن هذا الأمر مرة اخرى .

وعدناه بتحقيق رغبته ، فى حين اشـــاح ولدى (رودريك) بوجهه ، وابتسم ابتسامة غامضة ، ام افهم مغزاها لحظتها ، ولكننى لم اسأله ، بل اكتفيت بأن تناولنا جميعا الطعام ، ولم نكد ننتهى من تناوله حتى دخل ضابط من ضباط (الأباتى) إلى حجرتنا ، يأمرنا بالاستعداد للرحيل ، وخلفه عدد من الجنود يلقون إلينا بملابسنا ومعاطف تقينا شر البرد القارس ليـــلا ..

وأبدلنا بثيابنا ثيابا نظيفة ، ثم خرجنا إلى حيث تنتظرنا بعض الجمال ، أدركت عنـــدما وقع بصرى عليها انها من أجود انواع الجمال ، وقال الضابط فى صرامة :

ـــ هيا ايها الغرباء .. راجعوا امتعتكم ، حتى لا تدعوا اننا قد سرقنا منكم شيئا .. ها هى ذخيرتكم والعابكم النارية ، ولكننا لن نسلمها لكم قبل نهاية الطريق ، وستتبعكم جمال تحمل صناديق العظام

التى طلبتموها أجرا ، وأخرى تحوى بعض الآثار ، التى طلبها (هيجز) .. ولقد أمرت الملكة الا تفتحوا هذه الصناديق قبل بلوغكم (مصر) ، حتى لا تجادلوا فى أمـــر المكافأة أو قيمتهـــا ، والجمل الأخير يحمل طعامكم .. هيا .. لقد حان موعد رحيلكم .

امتطينا صهوات الجياد ، ورافقنا الحراس حتى نهاية الطـــريق ، حيث كانت تنتظرنـــا جماعة من الناقمين ، الذين راحوا يمطروننا بأقذع الألفـــاظ ، حتى أقصاهم الجند عنا ، وألقى أحد هؤلاء الناقمين علينا بيضة فاسدة ، تحطمت على أنف (هيجز) ، وسالت على وجهه ، فراح يسب ساخطا ناقما ، فى حين انفجرت أنا ضاحكا للمشهد ، وبددت ضحكته جو الكآبة المخيم على الموقف ، ثم لم تلبث أن اختنقت فى حلقى ، عنـــدما وقع بصرى على رجل فى أبهى حلله ، يمتطى جوادا أشهب ، وينتظرنـــا ممتشقا سيفه ، وسط ثلة من رجاله ..

كان أكثر شخص يبغضنا فى هذا العالم ..

الأمير (جوشيا) ..

* * *

١٤ ـ الختـام ..

كان أول ما جال بخاطرنا ، فى تلك اللحظة ، هو ان (جوشيا) يضمر لنا شرا ، وانه ما وقف ينتظرنا خارج أبواب (المور) ، إلا ليمزقنا إربا مع جنوده ، إلا انه اكتفى بابتسامة ساخرة ، وهو ينحنى فى تهكم ، قائلا :

ـ الوداع أيها الضيوف الأعزاء .. أرجو لكم رحلة طيبة آمنة .

ثم التفت إلى الكابتن ، واستطرد :

ـ أما أنت أيها الوسيم ، فسليلة الملوك تبلغك انها تأسف ؛ لأنك لن تشاهد حفل زفافها إلى الليلة ، فلقد خشيت أن يثور قومها لرؤيتك ، فيقتلوك وتسيل دماؤك ليلة عرسنا ، ولقد أرسلتنى لأخبرك انها تتمنى لو كنت قد وعيت الدرس ، حتى لا تتصور لاحقا أن عطف صاحبة المصلحة عليك حب ، فتفكر فى عبارتها ، واشرب الليلة نخب زهرة (المور) وزوجها الأمير (جوشيا) .

واجهه الكابتن فى برود ، وقال :

ـ من يدرى على اى أمر تشرق شمس الغد يا (جوشيا) .. العبرة دائما بخواتم الأمور ،

لا ببداياتها ، وثق انه من عاش بالسيف مات به ، وان حياتك التى بنيتها على الغدر ستنتهى بغدر ، وان من يضحك اخيرا يضحك كثيرا ، وكان ينبغى ان تطلب منى الصفح عن شماتتك وشتائمك ، التى انهلت بها على رءوس من لا يملكون القوة على الثأر والانتقام .

قال هذا وواصل طريقه ونحن خلفه ، فى حين سمعنا (جوشيا) من خلفنا يسأل احد رجاله فى دهشة :

ـ ما الذى يعنيه هذا الخنزير ؟ .

ولكننا لم نتوقف ، وواصلنا السير حتى ابتعدنا عن (جوشيا) ورجاله ، وابواب (المور) ، وغابت كلها عن ابصارنا ، فإذا بالأستاذ (هيجز) ينفجر ضاحكا ، على نحو اثار دهشتنا ، فسأله الكابتن :

ـ وماذا هناك ؟

اوقف (هيجز) جمله ، وهبط من على ظهره ، واندفع إلى احد الجمال المحمله بالصناديق ، وهو يهتف :

ـ لا تسأل وانت تجلس هناك .. هلم وساعدنى لنفتح احد هذه الصناديق .

قال الكابتن فى حذر :

ـ ولكن أوامر الملكة ..

قاطعه فى انفعال :

ـ دعك من هذا .. هيا وعاونى .

عاوناه جميعا على إنزال أحد الصناديق الثقيلة ، وهتف هو فى انفعال ، وهو يزيل رتاج الصندوق :

ـ لن يمكنكم أن تتصوروا حجم المكافأة التى حصلنا عليها ، والتى انتقيتها بنفسى من مقابر ملوك (المور) .

فتحنا الصندوق ، وتراجعنا مبهورين ..

كانت هنـاك أكـوام من الذهب والمجوهرات والتحف الأثرية والأحجار الكريمة بمختلف أنواعها ..

والتمعت التحف والمجوهـرات تحت أشـعة الشمس الآفلة ، وهتف (هيجز) ، وهو يشير إلى الصناديق التى تحملها الجمال الأخرى :

ـ كل صندوق من هذه يحمل نفس الأشياء .. لقد منحتنا الملكة كنزا ، مقابل ما فعلنا .. منحتنا كنوز الملك (سليمان) .

قلت فى انفعال ، وأنا أتطلع إلى الكنز :

ـ لا تنسـوا نصيب الجاويش (كويك) .. سيحصل على عشرة فى المـائة من كنـوز الملك

(سليمان) ، وسنقدمها إلى أبناء شقيقه الراحل ، و ....

وقع بصرى فى تلك اللحظة على وجه الكابتن ، الذى بدا باردا ، خاليـا من الانفعالات ، فبترت عبارتى ؛ لأسأله فى دهشـة :

ـ الا يسـعدك الحصـول على كنـوز الملك (سليمان) ؟

أطلق من اعماق صدره تنهيدة حارة ، وهـز راسه وكتفيه ، وهو يقول فى اسف :

ـ ما فائدتها ، وقد خسرت الكنز الحقيقى ؟

ثم ادار ظهـره لنا ، وانصرف متجاهلا اكداس الذهب والمجوهرات ..

لحظتها علمنا ما الذى يقصده بالكنز الحقيقى ، وامتلأت رءوسنا بصورة واحدة ..

صورة الملكة ..

* * *

مضت بنا القافلة فى الصحراء ، وقد تقدمتها انا و (هيجز) ؛ لخبرتنا بدروب الصحارى ، وسـار الكابتن فى الوسـط ، فى حين بقى (رودريك) فى المؤخرة ، لسمعه الحاد ، وخبرته فى كبح جمـاح الجمال وقيادتها ..

وعبرنا مدينة (هرمق) العظيمة ، وقد خلت من سكانها ، وصارت أطلالا مهجورة ، على الرغم من أن حقولها لا تزال مزهرة يانعة ، وواصلنا سيرنا حتى بلغنا قرية مهجورة ، فحططنا فيها الرحال ، ورحنا نتناول طعامنا ، مع مغيب الشمس ..

ودار بيننا نقاش حول الطـــريق الذى ينبغى أن نتخـــذه ، أننطلق إلى الشـــــمال ، أم نســـــلك الطريق القديم ، بعد أن جفت مستنقعاته ، وخرج (رودريك) لاستطلاع المنطقة ، ثم عاد ليخبرنا أنه قد وجد آثارا تشير إلى أن جيشا عظيما من (الفنج) قد غادر المدينـــة منـــذ ما لا يزيد على اثنتى عشرة ساعة على الأكثر ..

ولقد أقلقنا هذا كثيرا ، ورحنا نتساءل عما يعنيه هذا ، حتى غلبنا النوم ، فاستسلمنا إليه فى عمق ..

وقبيل الفجر أيقظنى (رودريك) ، وهو يقول :

ـــ معذرة لإزعاجك يا أبى ، ولكن هناك ظاهرة فى السماء ، أحب أن تشاهدها .

استيقظت وتطلعت إلى الشفق ، حيث (المور) ، وهالنى أن أجد السماء هنـــاك مضاءة ، وكأننا فى وسط النهار ، فأسرعت إلى الكابتن ، الذى لم يذق النوم ، وهو يعلم أن حبيبته ستزف لأبشـــع رجل

عرفه فى حياته ، فهب يحدق فى المشهد بدوره ، ثم قال فى صوت هادىء :

ـ إن (المور) تحترق .

هتف (رودريك) فى انفعال :

ـ لا ريب أن (الفنج) قد تسللوا عبر الطريق السرى إلى (المور) ، ولا شك أن (بارونج) قد ذبح (جوشيا) ، أو قتله شر قتلة ، قبل أن تزف إليه سليلة الملوك .

غامت عينا (أورم) بحزن عميق ، دون أن ينبس ببنت شفه ، فى حين غمغمت أنا مشفقا :

ـ ياللملكة البائسة !! ترى ماذا أصابها ؟

هز (هيجز) رأسه ، وقال :

ـ من يدرى ؟.. إننى معجب حقا بتلك الفاتنة .. يا للبائسة !.

وفجأة هتف (رودريك) :

ـ هناك من يقتفى أثرنا .

أسرعنا إلى حيث يشير ، ووقع بصرنا على شبح ملثم ، يعتلى صهوة جواد متعب ، فرفع (هيجز) بندقيته إليه ، وقال فى صرامة :

ـ من أنت ؟

هبط الشبح عن جواده ، وبدا لنا كصبى صغير ، اتجه نحو الكابتن ، وقال فى صوت أجش :

ـ إننى رسول أحمل رسالة للكابتن .

وناول الكابتن شيئا ، ورأيت الكابتن يحدق فى هذا الشىء مبهوتا ، فألقيت نظرة على راحته ، وهتفت :

ـ رباه !!.. إنه الخاتم .. خاتم (بلقيس) .

وصاح الكابتن فى جزع :

ـ من اين أتيت بهذا الخاتم أيها الصبى ؟ وماذا أصاب صاحبته ؟

أجابه الصبى الملثم :

ـ لقد ماتت ابنة الملوك التى عرفتها ، ولم تعد بها حاجة لهذا الخاتم .

امتقع وجه الكابتن ، وتراجع كالمصعوق ، وانتقلت صاعقته إلينا ، عندما أردف الصبى بصوت مألوف لآذاننا :

ـ ولكن (مجيدة) التى أحبتك ما زالت على قيد الحياة .

وانتزع الصبى اللثام ، وشهقنا جميعا ..

لقد كان (مجيدة) نفسها ، التى رحنا نتطلع إليها

وانتزع الصبى اللثام ، وشهقنا جميعًا ..
لقد كان (مجيدة) نفسها ، التى رحنا نتطلع إليها ..

فى ذهول وصمت ، قبل أن ترنو هى إلى حبيبهـــا ، وتضيف :

ـــ لم تعد بى حاجة إلى الخاتم ، ما دمت سأبقى إلى جوارك .

ضمها (أورم) إلى صدره فى لهفـــة وســـعادة واشتياق ..

الآن فقط نال الكنز الحقيقى ..

كنز الملك (سليمان) ..

[تمت بحمد الله]

روايات عالمية للجيب

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

كنوز الملك سليمان

٢

رائعة الأديب البريطانى (رايدار هاجارد) ، التى يقفز فيها عبر عالم الخيال ، إلى بلاد غامضة مجهولة ، وسط أدغال أفريقيا ، ليواجه مع أبطاله الأهوال والأحداث المثيرة ، فى سبيل بلوغ تلك الكنوز الأسطورية .. (كنوز الملك سليمان) .

العدد القادم : دكتور نو

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقى بالفجالة . القاهرة - ت ٩٠٨٤٥٥